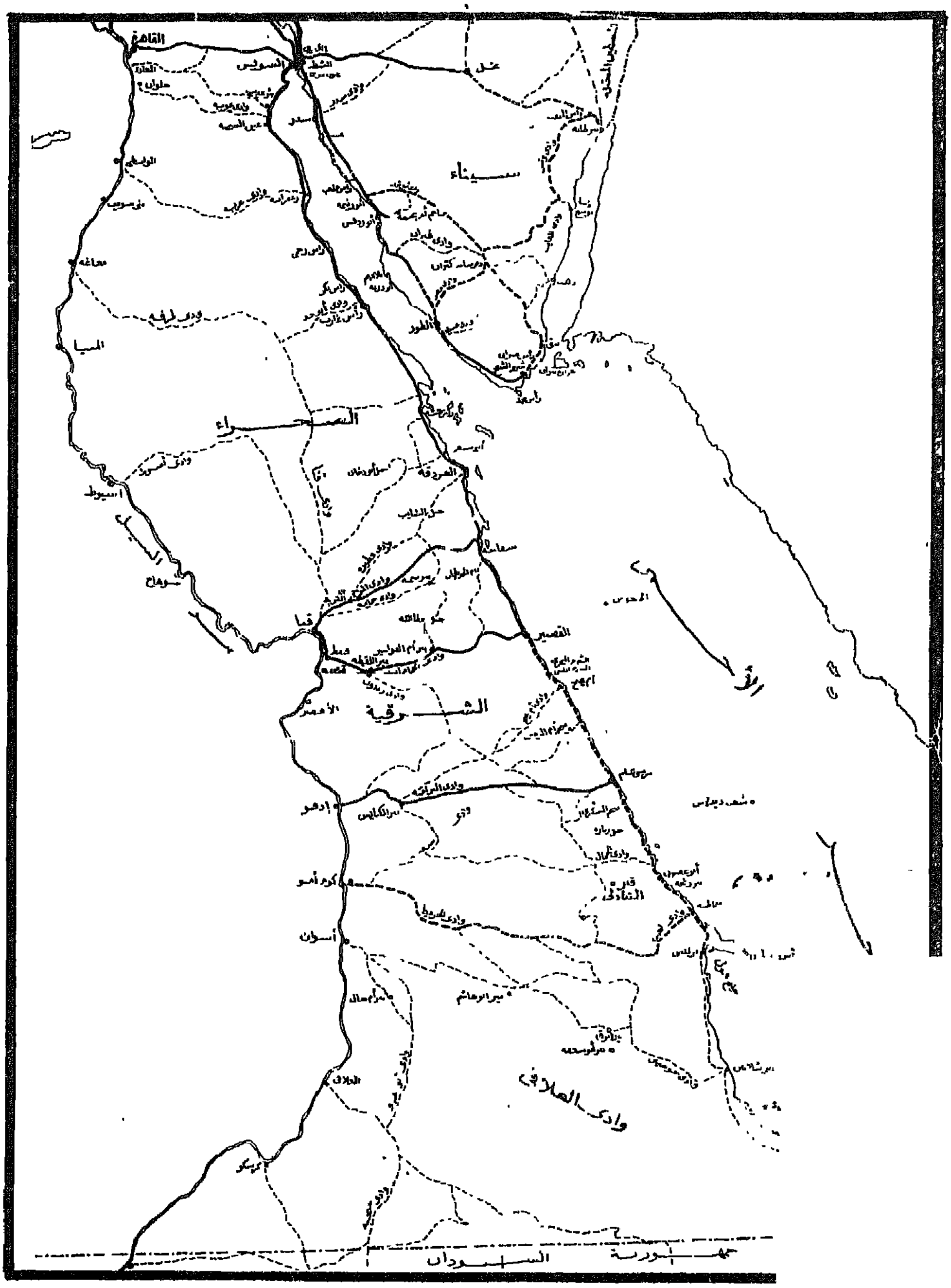
البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي



دكتور
السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى

دكتور
السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٣

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان من المتفق عليه ان يصدر هذا البحث ضمن دراسة شاملة عنوانها "محافظة البحر الأحمر عبر حقب التاريخ" اشترك فيها أربعة من أساتذة قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية يمثلون هذه الحقب التاريخية، وكان من نصيبى الكتابة فى البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى. ومضى وقت طويل منذ أن انتهيت من إعداد البحث دون أن يتحقق هذا المشروع الكبير. ولما لم يتم شىء مما اتفق عليه رأيت أن أنشر القسم الإسلامى من البحث، ومن المعروف أن البحر الأحمر شهد فى العصر الإسلامى نشاطاً بحرياً واسع النطاق فى مجال التجارة الشرقية وظهر على سواحل مصر المطلة على هذا البحر ميناءان رئيسيان عيذاب والقصير ارتبطا ارتباطا وثيقاً بمدينة قوص" حيث كانت تتكدس أحمال التوابل القادمة من الهند، ومن قوص كانت تشحن فى السفن النيلية إلى الفسطاط، ثم تنقل من الفسطاط إلى الإسكندرية عبر خليج الإسكندرية من بابها القبلى المعروف بباب البهار أو باب العمود. ومما لا شك فيه أن تجارة الكارم كان لها أعظم الأثر فى ازدهار عدد من المدن

المصرية التى ارتبطت بها، فبفضلها نهض ثغر عيذاب واتسع عمران القصير منذ العصر الفاطمى، واكتظ هذان الثغران بمن كان يفد إليهما من تجار المسلمين بالإضافة إلى حجاج مصر والمغرب الذين كانوا يؤثرون سلوك هذا الطريق المأمون بدلاً من الطريق البرى عبر سيناء، وإن كانوا يتعرضون أحياناً للغرق بسبب إكتظاظ الجلاب بالركاب، وبسبب الرياح غير المواتية التى كانت تدفع هذه الجلاب إلى الشمال أو الجنوب وتتسبب فى اصطدامها بالشعاب المرجانية والصخور التى تعترضها.

وكما ازدهرت كل من عيذاب والقصير المطلتين على البحر الأحمر، ازدهرت قوص والإسكندرية، واتسع عمرانهما، إتساعاً واضح المعالم بسبب نشاط الحركة التجارية وإزدحامهما بالتجار من مختلف الملل والنحل وكثرة المرافق ووفرة الخانات والفنادق والأسواق والوكالات.

ولقد أفدت كثيراً من البحوث الأثرية التى قامت بها البعثة الأميركية برئاسة عالم الآثار دونالدويتمان ورفاقه فى القصير، وأسفرت عن كشف الكثير من المواقع الأثرية واللقى، كما أفدت من بعض البحوث الأثرية التى أجريت قبل ذلك فى موقع عيذاب، والبحوث القيمة التى قدمها المستشرق الفرنسى چان كلود جارسان عن قوص، وما قدمه الباحثون المصريون من دراسات تاريخية قيمة عن عيذاب والقصير وعن البحر الأحمر فى العصر

الإسلامى وعلى رأسهم الأساتذة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور والمرحوم الدكتور صبحى لبيب والدكتور حسنين ربيع والدكتور عطية القوصى والدكتور أحمد السيد دراج.

هذا وقد اهتممت فى هذا البحث بالإضافة إلى ما تناولته من دراسات حول التجارة البحرية فى البحر الأحمر فى العصر الإسلامى، بمعالجة نظم الحكم والإدارة فى ثغر عيذاب وأهم النشاطات التجارية فيه باعتباره أهم الثغور المصرية المطلة على السيف الغربى من حوض البحر الأحمر، كما استنبطت من اللقى التى أسفر عنها البحث الأثرى فى القصيرحقائق تعين الباحث فى تاريخ التجارة الشرقية فى العصر موضوع الدراسة.

والله أسأل التوفيق،

السيد عبد العزيز سالم

البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى

البحر الأحمر فى التاريخ الإسلامى

(١)

البحر الأحمر قبل الفتح العربى لمصر

أ- التعريف بالبحر الأحمر:

يتفرع من المحيط الهندى الذى كان يعرف عند العرب ببحر الهند الأعظم [١] والبحر الحبشى[٢] ذراعان أو شعبتان أو خليجان فى مصطلح الجغرافيين العرب، الشرقى منهما هو بحر فارس[٣]، ويسمونه أيضاً بحر عُمان وبحر البحرين وكلها بحر واحد على ساحله الشرقى بلاد فارس وعلى ساحله الغربى بلاد العرب[٤] وعند رأسه بلاد الرافدين، وينتهى هذا الخليج إلى الأبلة وعبادان، وهو بوجه عام على شكل مثلث تنتهى إحدى زواياه إلى بلاد الأبلة. وكانت تطل على ساحله الشرقى من المدن البحرية سيراف وهرمز وعلى ساحله الغربى جرهة بالأحساء وصحار مسقط ودبا وجلفار وتوام من بلاد عُمان ودوحة قطر. ومن جزره خارك وأوال وقيس والبحرين وكاوان. ويتصل هذا الخليج عند مخرجه غرباً بالخليج البربرى وبحر الزنج الذى ينتهى بجزيرة قنبلو، وشرقاً ببحر لا روى أكبر بحار بحر الهند الأعظم، وبحر هركند ، ثم بحر كلا هبار، وبحر سلاهط الواقع بين الهند وسومطرة وهو خليج بنغال الشرقى، فبحر كردنج، وأخيراً بحر الصنف الذى ينتهى

ببحر الصين أو بحر صنجى[٥]. أما الخليج الغربى، ويعرف باسم خليج أيلة[٦] والبحر الشرقى[٧] (أى الواقع شرقى مصر) فيتجه شمالاً فى موازاة خليج فارس وينتهى فى أرض مصر بمدينة القلزم غرباً، وتقع على ساحله الشرقى بلاد اليمن والحجازوأيلة، وعلى سيفه الغربى بلاد الحبشة والسودان والعلاقى من أراضى البجة وبلاد العيذاب والقصير من أرض مصر فى حين يتصل من جهة الجنوب ببلاد سفالة من أرض الزنج[٨]. وقيل أن بهذا البحر أكثر من ثلاثمائة جزيرة[٩] ، أكبرها جزيرة شدوان، ومن أهمها الأشرفى، وزنيمة، وجيفاتين ووادى جمال، وجزر قولان، ومجموعة الحلايب والزبرجد. وهذه الجزر تحمى الموانىء المقابلة لها من غائلة البحر وأمواجه، ويفسر ذلك السبب فى صلاحية موانئ سفاجة والغردقة وحلايب كموانىء بحرية[١٠].

وقد سُمى البحر الأحمر بعدة مسميات وفقاً لموقعه من السواحل أو المدن التى تطل عليه، فسمى مرة ببحر القلزم[١١] نسبة إلى مدينة القلزم الواقعة عند نهاية خليجه الغربى، ومرة أخرى ببحر أيلة عند مدينة أيلة [١٢]، وعرف أيضاً بالبحر الحجازى[١٣]. وسمى مرة ببحر النعام[١٤]، ومرة أخرى ببحر عيذاب[١٥]. ويسميه ابن جبير أحياناً بالبحر الفرعونى[١٦]، وابن رستة ببحر جدة[١٧] عند ساحل مكة، بينما يسميه الهمذانى بحر الحجاز عند ساحل المدينة[١٨]، وبحر اليمن[١٩] عند سواحل اليمن.

والبحر الأحمر يشغل أخدوداً يفصل بين قارتى آسيا وأفريقيا[٢٠]، ويمتد مابين أيله واليمن مسافة يبلغ طولها ١٤٠٠ ميل فى قول المسعودى[٢١]. وسُمى بالبحر الأحمر اختصاراً لإسمه القديم بحر الملك الأحمر Erythraean ، ثم اختصر الإسم إلى البحر الأحمر[٢٢]. ومن الجدير بالذكر أنه لا تصب فيه أنهار سواء من سيفيه الشرقى أو الغربى، ولا تتعرج سواحله بوجه عام إلا فى بعض المواضع حتى خط عرض ٢٤ْ شمالا عند شبه جزيرة رأس بناس التى تضم إلى جنوبيها خليج برنيس[٢٣].

وتتسم سواحل البحر الأحمر وخليجاه الشماليان بكثرة الشعاب والشطوط المرجانية التى تحفها[٢٤]، وكذلك الصخور الناتئة التى تعترض مسيرة السفن وتتسبب فى غرقها، بالإضافة إلى الأخطار المترتبة على التقاء الرياح ولا سيما فى منطقة تاران الواقعة مابين القلزم وأيلة وهى " أخبث ما فى البحر من الأماكن[٢٥]، حيث الدوامات العنيفة والعواصف العاتية التى كثيراً ما تحطم الدسر وتتسبب فى غرق السفن[٢٦].

وتعتبر الشعاب رغم ما كانت تسببه فى العصور القديمة والوسطى من أضرار للملاحة حاجزاً يحمى الشاطئ من أمواج البحر، بل أن الاستاذ أحمد العدوى يعتبرها خطاً دفاعياً طبيعياً يحمى الساحل فى حالة هجوم بحرى[٢٧]. وتمتاز سواحل البحر الأحمر أيضاً بشدة التعرية البحرية

لتعرضها للرياح التجارية الشمالية الشرقية التى تهب عمودية على الساحل فى فصل الصيف لا سيما فى القطاع الجنوبى، وتساعد على دفع السفن إلى باب المندب[٢٨]. ومن هناك تدفعها الرياح الموسمية الغربية إلى الهند، كما تمتاز بخلوها من البحيرات أو المستنقعات التى تتكون عادة بجوار السواحل. وتهب على البحر الأحمر رياح جنوبية غربية فى فصل الشتاء تتجه إلى الشمال الشرقى وتساعد هذه الرياح السفن على الملاحة فى هذا الفصل من السنة (فى شهرى يناير وفبراير). ومما لا شك فيه أن الملاحة فى البحر الأحمر كانت تتبع فى العصر الإسلامى مواسم الرياح[٢٩] بدليل أن الرحالة الفارسى ناصرى خسرو علوى اضطر إلى البقاء فى ثغر عيذاب ثلاثة أشهر بسبب عدم اقلاع السفينة انتظاراً لهبوب الرياح الجنوبية التى تدفع السفن نحو الشمال[٣٠].

ب- الملاحة فى البحر الأحمر فى العصور السابقة على الإسلام:

اتخذ المصريون القدامى منذ عصر الدولة القديمة البحر الأحمر معبراً مائياً لسفنهم فى نقل أشجار البخور والورس والكافور واللادن والأبنوس والعاج والقرفة وبعض الحيوانات من بلاد بونت (الصومال واليمن)[٣١] إلى مصر. وكان لمنتجات اليمن والصومال سوق رائجة فى

مصر الفرعونية، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمنى والصومالى مع البخور لحرقه فى المعابد ، وفى تحنيط جثث الموتى(٣٢)، ومازالت نقوش معبد الدير البحرى تشهد بذلك(٣٣). وعندما انقطعت السفن المصرية عن ارتياد هذا البحر فى العصر المتأخر، وتعرضت البلاد للسيطرة الأجنبية، تولت السفن المعينية والسبئية والنبطية نقل هذه السلع إلى مصر و سورية فى العصر المتأغرق، ونشطت بذلك التجارة البحرية للعرب عبر البحر الأحمر، غير أن هذا النشاط التجارى العربى واسع النطاق فى البحرالاحمر لم يلبث أن تضاءل منذ القرن الأول قبل الميلاد بسبب تطلع البطالمة إلى احتكار الطريق التجارى عبر هذا البحر، وتركيز نشاطهم التجارى فى مصر على هذا البحر والمحيط الهندى(٣٤). وتحقيقاً لذلك أقدموا على انشاء محطات وموانىء على سواحله(٣٥)، واقامة علاقات مع عرب الجنوب الذين كانوا يشتغلون مع الأحباش فى التجارة فى البحر الأحمر(٣٦).

وقد حاول الرومان فى سنة ٢٤ق.م. احتكار الطريق التجارى عبر البحر الأحمر، والتخلص بذلك من الاعتماد على تجار العرب والحبشة، ففى هذه السنة خرج اليوس جالوس Aelius Gallus حاكم مصر الرومانية على رأس حملة إلى اليمن بهدف الاستيلاء على خيراتها من المر واللبان والبخور(٣٧)، والسيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر التى كان

يحتكرها ملوك سبأ، ولتطهير البحر الأحمر من القراصنة، ولما وصلت الحملة إلى ميناء لوكه كومه على ساحل الحجاز اشترك فى الحملة ألف من جندالأنباط وخمسمائة من اليهود(٣٨). ولكن الحملة الرومانية انتهت بالفشل وتعرضت لكارثة كبيرة فقدت بسببها عدداً كبيراً من المقاتلين الرومان. وترتب على ذلك عدول الرومان نهائياً عن التطلع لفتح اليمن، واقتصروا على محاولة السيطرة على التجارة البحرية ودعم مصالحهم التجارية في بلاد العرب عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالإمارات العربية وحكومات الحبشة. ويؤكد صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريترى Periplus Maris Erythraei· أن الرومان عقدوا حلفاً مع ملك الحميريين الذى كان يسيطر على مناطق واسعة من سواحل بلاد العرب الجنوبية على البحر الأحمر وعلى ساحل المحيط الهندى حتى حضرموت وكذلك ساحل عزانيا فى افريقيا(٣٩).

وبينما كان البحر الأحمر يستخدم منذ أقدم العصور معبراً مائياً لتجارة بلاد العرب الجنوبية حيث كانت تتكدس السلع الواردة من الهند عن طريق نواخذة عمان وكذلك من الحبشة وشرق افريقيا، كان الخليج الفارسى يمارس نشاطاً تجارياً واسع النطاق، إذ كان الطريق التجارى الهام الذى يربط البحار الهندية بوسط أسيا من جهة(٤٠).و ببلاد الشرق الأدنى من جهة

ثانية، وقديماً سلكه أهل اليمن فى عصر الدولة السبئية لنقل تجارة الهند والشرق الأقصى إلى البحرين وعمان وعدن، وكانت الأبلة Apologus فى عصر السبئيين سوقاً تجارية هامة تصدر إلى اليمن اللؤلؤ والتمور والذهب والعبيد، واستمرت قائمة حتى ظهور الإسلام، وكانت من الموانئ التى ترتبط تجارياً مع الهند والصين(٤١)، وكانت تعتبر لذلك فرج الهند(٤٢). وكانت جرهة (العقير أو القطيف) على ساحل الإحساء من أهم الثغور التجارية فى الخليج، وكان أهلها يزاولون منذ القدم نشاطاً تجارياً واسع النطاق مع الهند وفارس وبلاد العرب الجنوبية(٤٣)، كما كانت صحار قصبة عمان(٤٤) أهم المراكز التجارية العربية المطلة على الخليج، وكانت لأسواقها فى الجاهلية شهرة عالية، إذ كان يجتمع فيها تجار السند والهند والصين وغيرهم(٤٥)، ولذلك عرفت بأنها " دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن"(٤٥). ويصفها الإدريسى بأنها " أقدم مدن عمان وأكثرها أموالاً قديما وحديثاً"(٤٦). وكانت عدن أهم مراكز التجارة البـ ـية فى اليمن قبل الإسلام، وكانت مركزاً رئيسياً لتبادل السلع الإفريقية والهندية والعربية، ومنطلق السفن القادمة من الهند أو المتوجهة إليها(٤٨)، ولكنها اصبحت فى العصر الرومانى مجرد ميناء تتوقف عنده السفن اليونانية والرومانية المتجهة إلى الهند(٤٨). ويذكر المقدسى أنها دهليز الصين وفر ـة اليمن وخزانة المغرب

ومعدن التجارات[٤٩].

وهكذا كان التنافس بين البحر الأحمر وبين الخليج الفارسى أو بحر عمان قائماً منذ أقدم العصور، وكانت أهمية أحدهما تزداد على حساب الآخر تبعا للظروف السياسية فى منطقة الشرق الأدنى، والقوى المتحكمة فى المنافذ التجارية[٥٠]، فقد أدى الصراع بين الدولتين الساسانية والبيزنطية فى القرن السادس الميلادى إلى التنافس على السيطرة على الطريق البحرى للتجارة الشرقية، ويسجل النقش المعروف بنقش أبرهة ويتضمن ما يشير إلى قيامه بترميم سد مأرب فى سنة ٥٤٢ م وصول وفد من قبل ملك الروم، ووفد من قبل كسرى فارس فى جملة الوفود التى قدمت إلى مأرب مع تلك السنة. ويفسر دكتور جواد على المغزى من قدوم هؤلاء الرسل إلى عاصمة سبأ القديمة بالصراع القائم بين الروم والفرس لضم اليمن إلى جانب هؤلاء أو أولئك فيقول: " لم يكن مجئ هؤلاء المبعوثين إلى أبرهة لمجرد التهنئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة فى معجمات السياسة، لكن كانت لأمور أخرى أبعد من هذه وأهم، هى جر أبرهة إلى هذا المعسكر أو ذلك، وترجيح كفة على أخرى، وخنق التجارة فى البحر الأحمر أو توسيعها، ومن وراء ذلك إما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم، وإما ربح وافر يصيبهم لا يقدر. لقد كان العالم إذ ذاك كما هو

الآن جبهتين: جبهة غربية وجبهة أخرى شرقية، الروم والفرس، لكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة والمشيخات يطبلون ويزمرون. ويرضون ويغضبون، ويثيبون أو يعاقبون ارضاء للجبهة التى هم فيها، وزلفى إليها وتقربا. لقد سخّر الروم كل قواهم السياسية للهيمنه على جزيرة العرب أو إبعادها عن الفرس وعن المّيالين إليهم على الأقل، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم وتؤيد وجهة نظرهم، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندى والإتجار مع بلاد العرب(٥١).

وكان نواخذة فارس وعمان قبل الإسلام يحتكرون التجارة البحرية فى الأبلة وصحار، وكانت الأبلة من مدن الدولة الساسانية الواقعة على الحدود العربية(٥٢) بحيث كانت السفن الفارسية والعمانية تخرج من الأبلة وتعبر مياه الخليج لتمضى بعد ذلك إلى الهند والصين(٥٣)، وتمكن الفرس بفضل انضواء عرب عمان والبحرين المتمرسين فى الملاحة فى المحيط الهندى لهم من السيطرة على التجارة البحرية مع الهند قبل الإسلام، وأدى احتكار فارس لتجارة الخليج إلى اعتماد بيزنطة فى سياستها التجارية على ماكان يصلها من تجارة الهند عبر البحر الأحمر. ولذلك السبب حرص البيزنطيون على تشجيع الملاحة فى هذا البحر لمقاومة احتكار الفرس لتجارة الهند وذلك بتأمين طرق القوافل الموصلة ما بين قفط وبرنيس أو ميوس هورموس أكبر

موانئ مصر على البحر الأحمر التى تتلقى متاجر الهند، وكانت سفن الحبشة تتخذ هذا البحر طريقاً لنقل التجارة الشرقية من ثغر عدن إلى ثغرى مصر المطلين على البحر الأحمر(٥٤).

ومنذ منتصف القرن السادس الميلادى أخذ هذان الثغران يتخليان بالتدريج عن مكانتهما السامية لصالح القلزم Clysma الواقعة فى نهاية الخليج العربى من البحر الأحمر(٥٥)، فكانت السفن تصل إلى ميناء برنيس القديمة(٥٦) ، وتفرغ بعض شحناتها، فى حين كانت معظم حمولاتها تفرغ فى القلزم، ثم تنقل عبر القناة التى كانت تربط النيل بالقلزم(٥٧) إلى داخل مصر. وبمرور الزمن طمرت الرمال مجرى هذه القناة فلم تعد تصلح للملاحة، وظلت كذلك حتى فتح العرب لمصر. ثم أعاد عمرو بن العاص حفرها تنفيذاً لأمر الخليفة عمر بن الخطاب(٥٨)، وأصبح البحر الأحمر فى العصر الإسلامى ، بعد أن ازداد فيه نشاط العرب التجارى، بحيرة إسلامية(٥٩).

(٢)

التنافس على التجارة الشرقية بين البحر الأحمر والخليج الفارسى فى العصر الإسلامى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى

بسقوط الدولة الساسانية على أيدى العرب الفاتحين استعاد البحر الأحمر سابق ازدهاره لزوال دولة الفرس التى كانت تنافس مصر فى هذا الطريق التجارى الحيوى وتحد من نشاطها عبره، وواصل خليج أمير المؤمنين أداء مهمته فى إمداد الحجاز بالغلال والأقوات حتى غلب عليه الرمل، فتوقفت السفن النهرية عن السير فيه، وأصبحت نهايته عند ذنب التمساح من ناحية القلزم، وكان حجاج البحر من أهل مصر والراغبون فى السفر إلى الحجاز أو اليمن يركبون فيه من ساحل تنيس ثم ينتقلون فى

القلزم إلى المراكب الكبار(٦٠). وازدهرت القلزم(٦١) وأصبحت الميناء الثانية فى مصر بعد الإسكندرية، وكانت السفن تخرج منها فى عصر الخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية حاملة السلع والأطعمة وكذلك الحجاج إلى ثغر الجار فرضة المدينة وجدة فرضة مكة(٦٢). وفى عصر الدولة الأموية نشطت الحركة التجارية فى البحر الأحمر بسبب اهتمام خلفاء بنى أمية بتجارة الشرق وانشائهم محطات تجارية على الساحل الشرقى لافريقيا تأمينا لهذه التجارة. ويتمثل هذا الازدهار التجارى فى البحر الأحمر ونشاط الحركة التجارية فيه فى الكتاب الذى أرسله قرة بن شريك والى مصر إلى الوليد بن عبدالملك يبلغه فيه أن خزانته لم تعد تتسع لتقبل مزيد من الموارد المالية، ويسأله أن يدله على سبل الانفاق، فرد عليه الخليفة بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد(٦٣).

ولكن القلزم بدأت تفقد هذا الازدهار تدريجيا منذ أن حول الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور الطريق التجارى البحرى إلى الخليج، وعلى هذا النحو بدأ طريق البحر الأحمر يفقد أهميته مع قيام الدولة العباسية على حساب الخليج الفارسى، وتحولت مراكز التجارة والتبادل الاقتصادى بين الشرق والغرب تدريجيا من البحر الأحمر وعدن إلى منطقة الخليج، فاذدهرت بالتالى موانئ هذا الخليج كالبصرة وصحار وسيراف ثم قيس

في الوقت الذى خمل فيه البحر الأحمر نشاطه التجارى الحيوى فأصبح دوره التجارى ثانويا[٦٤]. وقد ساعد هذا التحول عاملان: أولهما شروع أبى جعفر المنصور فى انشاء بغداد حاضرة الخلافة العباسية التى كان من أسباب اختياره لموقعها أنها تجمع بين المزايا الاستراتيجية والمناخية والاقتصادية، وأنها سهلة الاتصال بالبصرة المركز التجارى الهام لتجارة الهند والصين[٦٥]. والثانى باقدامه على طمر خليج أمير المؤمنين فى سنة ١٤٥هـ[٦٦] وردمه، وبذلك قطع الاتصال بين النيل والبحر الأحمر مستهدفاً من ذلك فرض حصار اقتصادى على مكة، ومنع وصول القمح إلى أهلها على أثر قيام محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن النفس الزكية واخوته بالثورة على المنصور فى المدينة. وفى تصورى أن هذا الإجراء من جانبه كان يستهدف أمراً آخر هو تحويل تجارة الهند من موانئ البحر الأحمر إلى البصرة أهم موانئ الخليج الفارسى وذلك دعماً لمكانة بغداد الاقتصادية. وكان شروعه فى تأسيس بغداد فى بداية عام ١٤٥ هـ قبل أن يقوم النفس الزكية بثورته[٦٧]، إذ كان قد أتم بناء القصر والجامع والدواوين، وشرع فى رفع الأسوار عندما بلغه نبأ خروج محمد النفس الزكية، فأوقف أعمال البناء وخرج إلى الكوفة. فلما فرغ من اخماد ثورة النفس الزكية عاد إلى بغداد وواصل بنيان أسوارها.

ومع ذلك فقد ظلت القلزم تؤدى دورها كقاعدة بحرية هامة للتجارة عبر البحر الأحمر، وظلت السلع التجارية الآتية من غرب العالم الإسلامى تسلك الطريق من الفرما إلى القلزم ومنها عبر البحر الأحمر إلى الشعبية والجار وجدة واليمن(٦٨)، وعند عودتها من الجنوب كانت السفن ترسو بعيذاب أو القصير أو القلزم لتفرغ شحناتها من السلع الشرقية والإفريقية. ويذكر ابن خرداذبه أن اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية كانوا " يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً، يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة فى البحر الغربى، فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدراصينى (القرفة) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم، ثم يحملون إلى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربى"(٦٩).

وهكذا كان ميناء القلزم الميناء الأول لمصر المطلة على البحر الأحمر في المرحلة الأولى من تاريخ الملاحة فى هذا البحر(٧٠)، وقد ساعد على ازدهار القلزم فى صدر الإسلام قربها من الفسطاط حاضرة مصر

الإسلامية ومن شرق الدلتا حيث كان نفوذ العرب فى الحوف الشرقى قوياً فى المرحلة الأولى من عصر الدولة الأموية.

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجرى على وجه التقريب وقعت بعض الحوادث فى جنوب العراق أدت الى اختلال ميزان الأمن فى المنطقة واضطراب أحوالها، منها ثورة الزنج التى أشعل نارها زعيم يدعى على بن محمد بن أحمد وشملت المناطق الواقعة مابين البصرة وواسط، واستغرقت نحوا من ١٥ عاماً (٢٥٥هـ - ٢٧٠هـ) والتفت حول هذا الزعيم أعداد هائلة من الرقيق الأسود الذين كانوا يعملون فى استصلاح الأراضى السبخة حول البصرة لسوء أحوالهم الإجتماعية، وطائفة من العبيد التعساء من القرى المجاورة كان يحدوهم الأمل فى التحررمن الرق (٧١). و قد عاصرت ثوره الزنج الإرهاصات الأولى للحركة القرمطية التى شملت جنوب العراق وفارس والبحرين واليمن، وتسللت إلى عُمان فى الفترة من ٢١٧ هـ إلى سنة ٣٧٥هـ، وقد عاث القرامطة فى كثير من المناطق الآمنه فى جنوب العراق، وأقدموا على مهاجمة القرى وقوافل الحج والتجارة، كما هاجموا مكة والكعبة المشرفة فى ٣١٧ هـ ونهبوا الحجرالأسود ونقلوه إلى عُمان(٧٢). وقد تضافرت ثورة الزنج وحركة القرامطة فى الإضرار بالتجارة الشرقية مع الهند والصين عبر الخليج الفارسى، وتدهورت لذلك التجارة الشرقية عبر

الخليج، مما ترتب عليه استعادة البحر الأحمر لسابق مكانته فى العصرين الطولونى والاخشيدى، فقد اهتم أحمد بن طولون اهتماماً خاصاً بتجارة البحر الأحمر، وخصص عدداً من السفن لخدمة هذه التجارة وحماية السفن التجارية من التعرض لهجمات القراصنة. وقد اجتذب ازدياد النشاط التجارى فى البحر الأحمر عدداً من تجار فارس والعراق لمزاولة عملهم عبره، نذكر منهم على سبيل المثال: أبو بكر محمد بن على الماذرائى(٧٣) (ت٣٤٥ هـ) الذى أتم إحدى وعشرين حجة "وكان ينفق فى كل منها مائة ألف دينار، ويخرج معه بتسعين ألف ناقة لنفسه وأربعمائة عربى لجهازه ومؤنته، "وكان يحمل إلى الحجاز في البر والبحر جميع ما يحتاج إليه يفرقه هنالك: الدنانير والدراهم والثياب والطيب والحلواء والحبوب وسائر الأطعمه والقمح والدقيق والشعير والزيت ولا ينصرف عن الحجاز إلا وجميع من فيه أغنياء"(٧٤). ووفد إلى مصر فى العصر الطولونى طائفة من تجار اليهود الوافدين من فارس كانوا يعملون بالتجارة الشرقية عبر الخليج الفارسى. وكسبت مصر من تجارة البحر الأحمر فى العصر الطولونى مكاسب طائلة تعبر عنها المنشآت العظيمة التى أقامها أحمد بن طولون وابنه خمارويه وكذلك الجهاز الأسطورى الذى جهز به خمارويه ابنته قطر الندى. ويجدر القول أن الطولونيين ومن بعدهم الإخشيديين حاولوا بسط نفوذهم على

الحجاز حماية للطريق التجارى عبر البحر الأحمر. وفى العصر الأخشيدى تدفق على مصر عدد من تجار الشام اليهود كان لهم دور هام فى تجارة المرور بين مصر والشرق، من بينهم يعقوب بن كلس الذى جاء إلى مصر فى سنة ٣٣١ هـ ونزل بالفسطاط واشتغل بالتجارة الشرقية. واتصل بعد ثرائه بكافور وأصبح يعرف بتاجر كافور(٧٥).

اكتظت أسواق الفسطاط فى العصر الإخشيدى بسلع الشرق الأقصى، وعلى الأخص العنبر الذى كانت له سوق رائجة عند الإخشيديين، فقد اشتهر عن محمد بن طغج الأخشيد حبه للعنبر " وكان أكثر مايهدى إليه، فكان إذا جاءت هذه الأوقات التى يهدى إليه فيها (يقصد فى الأعياد والنوروز والمهرجان) أخرج من خزانته العنبر إلى التجار فيشتريه الذين يهدونه اليه، فيحصل له الثمن الوافر، ثم يعود العنبر"(٧٦). وذكروا أنه خلف بعد موته من العنبر ثمان مائة رطل(٧٧). وممن أثرى من تجار مصر فى عصر الدولة الإخشيدية التاجر عفان بن سليمان البزاز، وكان يشتغل بالتجارة الشرقية، وخلف بعد وفاته ثورة طائلة صادر منها الإخشيد نحو مائة ألف دينار(٧٨).

ولم يكد منتصف القرن الرابع الهجرى الذى اتضح فيه النشاط التجارى الفعلى لتجارة الكارم مع مصر حتى أصبح هناك طريقان بحريان

تجاريان يتنافسان للسيطرة على تجارة الكارم: طريق الخليج الفارسى الذى فقد بسبب ثورة الزنج والحركة القرمطية وقيام الدولة الفاطمية فى مصر تفوقه، وكان العمانيون أبرز رواده، وطريق البحر الأحمر الذي أصبح منذ أواخر القرن الثالث الهجرى الطريق الرئيسى للتجارة الشرقية والإفريقية. وترتب على ذلك ظهور عدد من الثغور التجارية المطلة على البحر الأحمر أهمها جدة والسرين على الساحل الشرقى لهذا البحر، وعيذاب والقصير على الساحل الغربى له.

ثم حلت مصر تدريجيا محل العراق فى المكانة الاقتصادية بعد انتقال الفاطميين إليها من المغرب، فظهرت عيذاب كأهم موانىء مصر التجارية على البحر الأحمر، كما برزت القصير التى حلت محل ليكوس ليمن Leucos Limen(٧٩)، وأصبح للبحر الأحمر منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر أهمية خاصة باعتباره بالاضافة إلى ماسبق ذكره الطريق البحرى الآمن المؤدى إلى الأراضى المقدسة، واعتبر المسلمون هذا البحر فى العصور الوسطى إسلامياً، موصداً فى وجه السفن غير الإسلامية(٨٠). وأدى استرجاع البحر الأحمر لمكانته الملاحية القديمة منذ النصف الأول من القرن الرابع إلى اهتمام السلطات الحاكمة فى مصر بتأمين الملاحة فيه حماية للتجارة، وحفاظاً على سلامة المسافرين فيه من حجاج المغرب الإسلامى

ومصر، لا سيما بعد أن تلاشت أهمية طريق الخليج، وزادت بالتالى أهمية عيذاب والقصير خاصة بعد دثور القلزم، وتخريب الصليبيين لمدينة الفرما سنة ٥٤٥هـ على النحو الذى سنشير إليه فى الصفحات التالية: وسنعرض فى الفصل التالى بعض الاجراءات التى قام بها حكام مصر فى العصور المختلفة لتأمين الملاحة فيه من اعتداءات القراصنة، وكذلك لتأمين الطرق الموصلة ما بين موانيه وبين وادى النيل من غارات العربان والبجة.

(٣)

البحر الأحمر المنفذ الرئيسى للتجارة الشرقية والمعبر الوحيد إلى الحجاز منذ العصر الفاطمى

أ- استمرار طريق القلزم البحرى معبراً للتجارة الشرقية :

ساعدت الظروف الصعبة التى كانت تجتازها الدولة العباسية منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى الفاطميين فى مصر على السيطرة على التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر، فسرعان مانشطت الحركة التجارية فى موانىء مصر المطلة على هذا البحر لاسيما ميناء القلزم نشاطاً لم تشهده من قبل. وظلت القلزم تمارس دورها كميناء تجارية هامة فى أقصى الطرف الشمالى من خليج السويس "على ساحل بحر اليمن فى أقصاه جهة مصر"(٨١)، فكانت تحمل منها الحمولات إلى الحجاز واليمن. وعمل الخلفاء الفاطميون من جانبهم على دعم النشاط التجارى بهذا الثغر وغيره من ثغور مصر المطلة على البحر الأحمر، ففى رمضان من سنة ٣٨٧ هـ سامح الحاكم بأمر الله أهل القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب تشجيعاً للتجارة(٨٢). والواقع أن القلزم كانت منذ فتح العرب لمصر حتى النصف الأول من العصر الفاطمى الميناء الأول فى مصر التى يبحر منها الحجاج المصريون والمغاربة إلى الأراضى المقدسة. فاليعقوبى (ت ٣٨٤ هـ) يذكر أن "من أراد الحج من مصر، وخرج من مصر (الفسطاط) إلى مكة، فأول

منزل يقال له جب عميرة، به مجتمع الحاج يوم خروجهم، ثم منزل يقال له القرقرة فى صحراء لاماء بها، ثم منزل يقال له عجرود به بئر قديمة بعيدة الرشاء، زعقة الماء، ثم إلى جسر القلزم، ومنها إما يبحرون إلى جدة، وهذا مافعله الرحالة الفارسى ناصرى خسرو أكثر من مرة، منها عندما صحب وفد السلطان مع الكسوة فى ٨ من ذى القعدة سنة ٤٣٩ هـ، وركب سفينة أقلعت من القلزم، فبلغ الجار بعد ١٥ يوماً (فى ٢٢ من ذى القعدة)(٨٣)، ومرة أخرى عندما رحل إلى مكة عن طريق القلزم مع مبعوث الخليفة، فبلغت السفينة ثغر الجار فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، وعاد الى مصر من نفس طريق القلزم (٨٤)، ومرة ثالثة عن طريق أسوان - عيذاب - جدة فى سنة ٤٤٢ هـ، وإما يرحلون براً إلى أيلة فى صحراء واسعة، وفى أيلة يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب، ثم يضمون إلى شرف البعل، ومنها إلى مدين، ثم إلى عينونا، فالعوفيد، فالحوراء، فالجار، فالجحفة، فقديد، فعسفان ومنها إلى بطن مر فمكة(٨٦).

وكانت القلزم على حد قول المقدسى خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج(٨٧)، وكانت على هذا النحو ميناء تجارية هامة، ومحطة بحرية رئيسية هامة لحجاج مصر والمغرب، واستمرت تتبوأ هذه المكانة السامية بين موانىء مصر المطلة على البحر الأحمر حتى منتصف القرن الخامس

الهجرى عندما هجرت وشملها الخراب، وحلت محلها السويس. وظلت القلزم ثغراً مهملاً إلى أن دثرت تماماً وتلاشى أمرها. ويصفها ياقوت فى عهده (ت٦٢٦ هـ) بأنها أصبحت خراباً يباباً، وأن الفرضة صارت موضعاً قريباً منها يقال له سويس[٨٨]. ثم تحول طريق الحج والتجارة إلى الثغرين الجنوبيين المطلين على البحر الأحمر وهماعيذاب والقصير، وذلك فى بداية العصر الفاطمى الثانى عندما تأزمت الأحوال الاقتصادية فى مصر زمن المستنصر بالله الفاطمى عدة سنوات بسبب نقص مياه النيل والحروب الطاحنة فى الداخل وما صاحب ذلك من انقطاع الأقوات عن البلاد وهو ماعرف بالشدة المستنصرية[٨٩] فلم يعدالطريق البحرى الشمالى من القلزم إلى الجار أو جدة، ولا الطريق البرى من أيلة آمناً لقوافل الحجاج[٩٠] الأمر الذى أدى إلى تحول درب الحج إلى أحد طرق ثلاثة تربط بين البحر الأحمر والنيل هى:-

(١) طريق قوص - القصير. (٢) طريق قوص - عيذاب.

(٣) طريق أسوان - عيذاب.

وأصبحت عيذاب الثغر الرئيسى للحجاج المغاربة والمصريين والمرسى التجارى الهام للحط والاقلاع بالنسبة لتجار الكارم. وماكادت الأحوال الداخلية تستقر فى مصر منذ أن تولى أمير الجيوش بدر الجمالى وزارة

الإنقاذ ومن بعده ابنه الأفضل شاهنشاه حتى تعرضت الشام للعدوان الصليبي وتأسست مستعمرات صليبية للفرنج فى بيت المقدس والكرك والشوبك، وتعرضت مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى لغارات الصليبيين وتهديداتهم المتواصلة. ففى سنة ٥١١ هـ تمكن بغدوين ملك الفرنج (بلدوين الأول) من دخول الفرما فنهبها وأخربها، وأضرم فيها النيران، وهدم جامعها، ودمر مساجدها، وأحرق أبواب المدينة، ثم رحل عنها، فأدركته المنية فى طريق عودته قبل أن يصل إلى العريش(٩١). وتكرر العدوان الصليبى على الفرما فى رجب سنة ٥٤٥ هـ(٩٢)، وكانت نهايتها على يدى شاور بن مجير السعدى الذى خربها بعد أن خرج منها متوليها ملهم أخوأبى الأشبال ضرغام،فاستمرت مهجورة بعد ذلك(٩٣).

ب- ازدهار حركة التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر فى العصر الفاطمى :

خصت الدولة الفاطمية منذ قيامها فى مصر التجارة الشرقية أو تجارة الكارم عبر البحر الأحمر بجانب كبير من عنايتها، وكان لذلك أعظم الأثر فيما أحرزته مصر من تقدم اقتصادى وازدهار حضارى فى هذا العصر، وهى حقيقة تشهد بها ماكانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسلاح والتوابل والأدم، وغيرها من

خزائن الدولة الفاطمية من ثروات تتجاوز كل تقدير فى الحسبان نوه بها المقريزى فى الخطط والرحالة الفارسى ناصرى خسرو فى رحلته[٩٤]. واكتسبت موانىء البحر الأحمر على الساحل الغربى شهرة تجارية واسعة النطاق طغت على شهرة البصرة وسيراف وصحار أشهر موانىء الخليج بعد أن تحول طريق التجارة البحرية مع الشرق الأقصى من الخليج إليه على النحو الذى أشرنا إليه[٩٥]. وتألقت على هذا النحو مدينتا عيذاب والقصير، وأصبحت عدن التى تشحن منها السفن إلى البحر الأحمر محطة رئيسية لكل تجارة المحيط الهندى وأهم قاعدة بحرية ترد إليها وتصدر منها السفن القادمة من البحر الأحمر والحبشة وزنجبار والهند والصين[٩٦]، والمنافس العتيد لجزيرة قيس فى خليج فارس التى تبوأت مكان الصدارة فى تجارة الخليج بعد سيراف، مما حمل حاكم قيس على الإقدام على مهاجمة ثغر عدن فى سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥م) وإحكام الحصار عليها شهراً لإرغام تجار الهند على التحول إلى جزيرته. ولكن هذا الحصار انتهى بفشل ذريع بعد أن تعرض أسطول قيس للهزيمة فى مياه عدن[٩٧]، وارتفعت مكانة عدن التجارية بعد هذا الحادث حتى عرفت بحق بدهليز الصين[٩٨].

وقد فطن الفاطميون، تحقيقاً لهدفهم، إلى ضرورة إحكام سيطرتهم على البحر الأحمر عن طريق بسط سلطانهم على بلاد الحجاز واليمن. وفى سبيل هذا الهدف دخلوا فى صراع ضار مع العباسيين، ومع أشراف مكة، ومع ملوك اليمن، واستغلوا حالة الضعف والإعياء التى آلت إليها الخلافة العباسية، وإقدام القرامطة على انتزاع الحجر الأسود من الكعبة، فى كسب قلوب اشراف الحجاز، بفضل الأموال والهدايا التى كان يبعث بها الخلفاء الفاطميون إليهم، والخلع التى كانوا يرسلونها إلى أمير مكة مرتين فى العام الواحد(٩٩).

وبالنسبة لليمن كان قيام الدولة الصليحية فاتحة خير للدولة الفاطمية، فقد أصبح اليمن بفضل ارتباط الصليحيين بالدعوة الفاطمية تابعاً تبعية روحية للدولة الفاطمية فى مصر، وتوثقت العلاقات التجارية بين مصر واليمن. وأفاد الفاطميون من الولاء السياسى والمذهبى الذى كان يبذله بنو صليح فى اليمن لهم فى تأمين تجارتهم فى البحر الأحمر، وبلغ هذا الولاء للفاطمين ذروته فى عهد أبى كامل على بن الصليحى (٤٢٩-٤٧٣ هـ) الذى يرجع إليه الفضل فى نشر الدعوة الفاطمية فى سائر انحاء اليمن منذ أن قضى على بقايا دولة بنى زياد الموالية للعباسيين. وارتبطت مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، واليمن فى عهد على الصليحى بعلاقات

بلغت الغاية فى الود [١٠٠]، وتتمثل فى الهدية التى أرسلها على بن محمد الصليحى إلى المستنصر بالله فى سنة ٤٥٤ هـ وتضم كميات كبيرة من التحف الذهبية والفضية والسلاح والوشى والمسك والعنبر والكافور والعود الهندى، حملها اليه رسول من اقاربه يدعى أحمد بن محمد الصليحى[١٠١]، وبعد ذلك بأربع سنوات أرسل الصليحى وفداً إلى مصر يمهد لزيارته للقاهرة، ولكنه قتل فى مكة أثناء رحلته إلى مصر[١٠٢]، وكان اسم المستنصر بالله يدعى له على المنابر، ثم للصليحى ثم للسيدة أسماء[١٠٣]. واستمرت الدعوة فى اليمن للفاطميين طوال عهدعلى الصليحى وابنه المكرم أحمد وزوجته السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر. ولم تتأثر هذه العلاقات الطيبة بالشدة المستنصرية، كما لم يتأثر مركز مصر فى اليمن بسبب الانقسام المذهبى إلى مستعلية ونزارية، وواصلت السيدة الحرة بذل ولائها للآمر بأحكام الله، بل بايعت لولده الطيب بعد وفاته، ولم تبايع للخليفة الحافظ الذى اعتبرت إمامته باطلة. وهكذا أمكن للفاطميين بفضل تمكين نفوذهم على اليمن والحجاز من تأمين تجارتهم فى البحر الأحمر[١٠٤]، واستقر عدد كبير من تجار مصر والكارمية فى مدن اليمن، وعلى الأخص فى عدن المركز الرئيسى لتجار الكارم والمقر الأول فى اليمن للكارمية فى العصر الفاطمى، وقد اتخذوها وطناً ثانٍ لهم ومنهم بنو الخطباء وهم تجار مصريون استقروا

فى اليمن[١٠٥]. وترجع أول اشارة لتجار الكارم فى العصر الفاطمى إلى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م)، التى ذكر ابن أيبك الدوادارى فيها خبراً عن تأخر وصول التجار وانقطاع الكارم[١٠٦]. ومما يؤكد وصول الكارمية إلى موانىء مصر المطلة على البحر الأحمر أن القلقشندى يذكر أن الفاطميين كان لهم اسطول عدته خمسة سفن خصصت للمرابطة فى مياه عيذاب، مهمتها أن تتلقى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وماحولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم[١٠٧]، وفى موضع أخر يذكر أن المكوس كانت تؤخذ على واصل التجارة الكارمية من أصناف البهار وأنواع المتجر من جهة اليمن[١٠٨]. وكان اهتمام الدولة الفاطمية بحماية تجارة الكارم نابعاً من ادراكهم لأهمية التجارة الشرقية بالنسبة لاقتصاد بلدهم، فهذه التجارة كانت وسيلة لتنمية ثرواتهم التى كانت تسخر لخدمة مصالح الدولة الفاطمية ضد العباسيين، وفى نفس الوقت لتحقيق سيادتهم المذهبية فى بلدان الخلافة العباسية السنية. وفى سبيل هذا الهدف لم يتردد الفاطميون فى عقد الاتفاقات التجارية مع دول الشرق والغرب، وشجعوا هذه الدول على التعامل التجارى مع مصر بالامتيازات التجارية والاعفاءات التى تمنحها الدولة لطوائف التجار، وباقامة الفنادق الخاصة بهم وبتطبيق سياسة قائمة على

التسامح الدينى مع التجار الأجانب والسماح لهم بحرية التنقل فى البلاد. ويفضل هذه السياسة الايجابية الحكيمة تسابق التجار من شتى أنحاء المعمورة فى التعامل مع مصر الفاطمية(١٠٩). وعلى هذا النحو شهد العصر الفاطمى قيام نشاط واسع النطاق لتجار الكارم الذين تركزت فى أيديهم التجارة الشرقية المارة بالبحر الأحمر.

(٤)

الكارمية ودورهم فى التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر فى العصر الإسلامى

اشتق اسم الكارم من الكانم وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، ثم انتشر اسم الكارم بين المشتغلين بتجارة البهار[١١٠]، وعرف بعض طوائفهم باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور الواقعة شرقى مالي، ومن التكرور أطلق اسم الدكرور على ميناء بولاق النيلى، فعرفت ببولاق الدكرور نسبة إلى التكرور الذين كانت ترد سلعهم من قوص بطريق النيل إلى ساحل بولاق[١١١]. وهناك من يشك فى تفسير كلمة كارم على النحو الذى أوردناه ويعتقد أن اسم كارم اقتبس من لفظة كاراريما Kuararima، وهى لفظة أمهرية تعنى حب الهال "الحبهان" وهو نوع من التوابل التى كانوا يتجرون فيها، ثم صحفت الكلمة وأصبحت كارم ومن ثم أطلقت على هؤلاء التجار[١١٢]. وقد يكون الإسم هندى الأصل، فكلمة كاريام الهندية Karyam تعنى الأعمال، ويقصد بها الأعمال المرتبطة بين سكان الساحل الغربى من الهند وتجار الشرق[١١٣]. وهناك من يفسر كارم بأنها تتألف من مقطعين : "كار" بمعنى عمل أو حرفة، و "يم" بمعنى

البحر، فتصبح كاريم فى هذه الحالة حرفة التجارة فى البحر(١١٤). ويرى الدكتور صبحى لبيب أن التفسير الأول لكلمة كارم أكثر قبولاً، استناداً إلى أن اتصال مصر ببلاد الكانم فى العصر الوسيط يرجع إلى العصر الفاطمى على الأقل، فقد كان الشب يجلب آنذاك من بحيرة تشاد إلى مصر. ويستند أيضاً على نص ورد فى كتاب لابن ماجد الملاح العربى المشهور يتضمن مايشير إلى أن طريق التجار لاستجلاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم. ومع ذلك فإنه يبرز حقيقة انثروبولوچية تقوم على أساس أن كارم تعنى العنبر الأصفر الذى كانت تستخدمه نساء مصر فى القلائد، ويفترض أن هذا الكارم كان من بين السلع التى يستجلبها الكارميه إلى مصر، وفى هذه الحالة يصبح اسم الكارمية مرتبطاً بهذه السلعة(١١٥). وأميل بدورى إلى الأخذ بالتفسير الهندى لكلمة كارم لارتباط الكارم بتجارة التوابل وتشتمل على أنواع عديدة من المنتجات الهندية وأولها الفلفل والبهار والدارصينى والقرنفل والكافور وغيرها.

وأياً ماكان أصل كلمة كارم فإن التاجر الكارمى اصطلح على أنه التاجر الذى يشتغل بالتجارة الشرقية بوجه عام والتوابل على وجه الخصوص. وكانوا يتجرون بالإضافة إلى السلع التى ذكرناها فى الخلنجان والجنزبيل والراوند والعود الهندى والزعفران والمسك وخشب الصندل وكذلك فى الحرير الخام

الخام والأسلحة[116]، وكان الفلفل أهم السلع الرائجة فى الغرب الأوروبى إذ كان يستخدم فى أطعمة الأغنياء ولعلاج بعض الأمراض، وفى صناعة الخمور، وفى حفظ الطعام[117].

وكانت عدن المركز الرئيسى لتجار الكارم فى اليمن فى العصر الفاطمى، كما كانت قوص مركزهم الرئيسى فى مصر، وكان الكارمية ينقلون التوابل الهندية من ثغر عدن إلى مينائى مصر العظيمين على البحر الأحمر : عيذاب والقصير فى مواسم معينة من السنة[118]. وجنى الكارمية من وراء اشتغالهم بتجارة التوابل مكاسب هائلة، وكونوا ثروات طائلة، وأصبحوا يشكلون الطبقة المميزة والمفضلة عند حكام مصر واليمن لكثرة المكوس التى كانت تفرضها السلطات المصرية واليمنية عليهم. وقد ظهرت من تجار الكارم أسرات اشتهرت بثرائها العريض، لاسيما فى عصر دولة المماليك، أسهمت فى اقامة المنشآت الدينية والمدنية العلمية، فاقبل الكثير منهم على انشاء المساجد والمدارس ودور الحديث والأربطة فى سائر مدن مصر والحجاز، واشتغل بعضهم بالتدريس والقضاء بالإضافة إلى حرفتهم الأساسية وهى التجارة[119] وكانت لهم نقابة فى مصر تشرف على تجارة الشرق يتولاها رئيس تعترف به الدولة يعرف برئيس الكارمية[120].

وكانت طائفة الكارمية الدعامة والركيزة الأساسية للبناء الاقتصادى

فى مصر الإسلامية، فبفضلهم جنت مصر مكاسب عظيمة بفضل قيامهم بنقل التجارة الشرقية من الشرق الأقصى، والهند واليمن وأفريقيا الشرقية إلى مصر، ومن الإسكندرية كانت تحملها السفن إلى الغرب الأوروبى، وكانت لهم مستودعات ضخمة وفنادق فى قوص والفسطاط وعيذاب والقصير والإسكندرية وكذلك فى عدن والهند، وظلت طائفتهم تحتكر الاشتغال بنقل التجارة الشرقية حتى القرن التاسع الهجرى عبر البحر الأحمر الذى كانوا يعتبرونه بحيرة اسلامية بعد أن منع التجار غير المسلمين من ولوجه والملاحة فيه، وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على نمو تجارتهم واتساعها(١٢١)، وقد اتاح لهم دورهم الاقتصادى الهام فرصة التدخل فى الشئون السياسية والمالية لدولة سلاطين المماليك إلى حد أن حكومة المماليك خصصت من أجلهم وظيفة "نظر البهار الكارمى"، وهى وظيفة هامة يتولى صاحبها مراقبة مايصل اليه التجار الكارمية من أصناف البهار وأنواع المتجر، وكانت هذه الوظيفة تضاف احياناً الى الوزارة واحياناً أخرى إلى الخاص(١٢٢). ويمثل الكارمية طائفة من المسلمين، اتخذوا الإسلام أساساً لوحدة طائفتهم ولم يكن فيهم أى عنصر يهودى(١٢٣)، كما يزعم مارسيل كليرجيه(١٢٤). أما من كان يهودياً من التجار وأراد الانخراط فى سلك الكارمية فكان عليه أن يعتنق الإسلام، وممن أسلم من تجار اليهود

التاجر الكولى عز الدين عبد العزيز بن منصور الذى سبق أن أشرنا اليه[١٢٥]. ويعلق الدكتور صبحى لبيب على ذلك بقوله : "فلأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية تسيطر على التجارة المصرية هيئة اسلامية خالصة تتحكم فى نفس الوقت فى أهم تجارة عالمية وهى تجارة التوابل وسلع الشرق[١٢٦].

ومن الجدير بالملاحظة أن كل من وصلتنا أخبار عنهم فى المصادر العربية كانوا تجاراً مسلمين، وعلى قدر عالٍ من الثقافة والعلم، وكانت مدارسهم ودور الحديث التى أسسوها فى مصر مخصصة لتدريس الحديث والشريعة وعلوم اللغة. وفيما يلى بعض أسماءلكارمية ورد ذكرها فى المصادر العربية :

١- أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الجبار العثمانى الإسكندرانى، التاجر الكارمى، المحدّث (توفى فى ذى الحجة سنة ٦١٤هـ)[١٢٧].

٢- عبد العزيز بن منصور الكولى التاجر الكارمى المشهور بكثرة الاموال (توفى بالإسكندرية فى ٧١٣ هـ) وكان من التجار المياسير[١٢٨]، وكان أبوه من يهود حلب، فأسلم فى آخر الدولة الظاهرية، وتعلم هو الحياكة ثم لازم بعض التجار فوجد فيه ذكاء ومهارة فائقة، فصرفه فى حوائجه، وسافر معه إلى بلاد الخطا (الترك) فغاب مدة، ثم عاد إلى حلب ومعه شئ كثير من الحرير، ثم كثر ماله وأصبح يضرب به المثل

للغنى الفاحش والثراء العريض.

٣- سراج الدين عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن سديد الربعى التكريتى نزيل الإسكندرية (ت ٧١٤ هـ) من رؤساء الكارم وكان شاعراً وأديباً[١٢٩].

٤- سراج الدين عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبى الفتح بن محمود بن الكويك أبى القاسم التكريتى الأصل، التاجر الربعى (ت٧٣٤هـ ببلاد التكرور) وكان من رؤساء الكارم[١٣٠].

٥- شمس الدين محمد بن محمود بن أبى الفتح بن أبى القاسم التكريتى نزيل الإسكندرية (ت٧١٤ هـ)[١٣١].

٦- المجد معالى الكارمى، كان كريماً محسناً إلى الناس[١٣٢].

٧- محمود بن الكويك التاجر الكارمى بقوص[١٣٣].

٨- الزين محمد بن محمد بن عبد الرحمن النخعى القوصى، كان فقيهاً شافعياً له مشاركة فى النحو والأصول، حسن الأدب، تزوج بنت ابن الجبيلى الكرامى، وسافر بالكارم مدة، وتوفى سنة ٧١٥ هـ[١٣٤].

٩- أحمد بن عبد الوهاب بن حريز الإسنائى التاجر الكارمى والشاعر الإسنائى (توفى فى حدود سنة ٧٠٠ هـ)[١٣٥].

١٠- شرف الدين محمد بن الحسين بن محمود بن أبى الفتح بن الكويك

الربعي التكريتي (ت ٧٦٤ هـ) وكان من أعيان تجار الكارمية، أسس المدرسة الكبيرة بمصر وجعلها دار حديث، وخصص لها أوقافاً كثيرة، توفي وهو مجاور بمكة وترك أموالاً كثيرة للغاية أطاح بها ولده تاج الدين محمد في سنة واحدة(١٣٦).

١١- محمد بن مسلم بن أحمد البالسي الأصل، التاجر الشهير، وكان يرحل إلى الهند والحبشة واليمن والتكرور وربح من تجارته أموالاً مفرطة، غاب مرة في قوص، فأشاع ولده نور الدين أنه مات، وبذل للأشرف شعبان قدراً كبيراً من مال أبيه ليمكنه من حواصله(١٣٧).

١٢- زكي الدين أبو بكر بن علي بن محمد بن علي الخروبي التاجر الكارمي (توفي في أوائل المحرم سنة ٧٨٧ هـ) كان رئيس التجار بالديار المصرية. وكان مصري الأصل ينسب إلى رحبه الخروب بالفسطاط، ونشأ فقيراً لأن أباه كان يعاني الزهد وبنى لنفسه زاوية بالجيزة على ساحل النيل كان يقيم بها ويجتمع عنده الفقراء، وكان أخوه بدر الدين الخروبي موسراً فلما توفي انتقل الإرث إلى زكي الدين، وكان قد رحل إلى اليمن من طريق عيذاب بمتجر بخس، فرجع وورث مالاً عظيماً، فعظم شأنه، وخضع له أكابر التجار، وأصبح عيناً من أعيانهم(١٣٨).

وقد بلغ من ثراء تجار الكارم أنهم كانوا يدفعون الزكاة وكل ماكان يطلب منهم عن قبول ورضا تقديراً منهم للرعاية التى كان يكفلها لهم السلاطين ومظلة الحماية التى كانوا يرعون بها مصالحهم التجارية(١٣٩)، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يقرضون السلاطين فى مصر واليمن كلما طلبوا منهم ذلك. ومن أمثلة ذلك أن بعض تجار الفرنج أدانوا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بستة عشر ألف دينار ثمن أشياء ابتاعها الناصر منهم، ولم يكن لديه من المال مايسدد به ثمنها، فأرسل ناظره الخاص كريم الدين أكرم بن هبة الله القبطى إلى تجار الكارم ليقترض منهم(١٤٠). كذلك أقرض التجار السلطان الملك الصالح بن الناصر نحو مائة ألف دينار عندما طلبت أمه منهم ذلك(١٤١). وفى عهد السلطان المنصور قلاوون أقرض تجار الكارم جماعة من أعيان دمشق فى سنة ٦٨٧هـ مالاً بطلب من الأمير علم الدين سنجر الشجاعى(١٤٢).

غير أن اضطراب الأوضاع فى مصرمع قيام دولة المماليك(١٤٣) نفّر الكارمية من التردد على مصر، فقنعوا بالحفاظ على مراكزهم التجارية الرئيسية فى اليمن والبحر الأحمر، ولكن السياسة الحكيمة التى اصطنعها الظاهر ركن الدين بيبرس لتوفير الأمن والعدل والاستقرار للكارمية وإلغاءه المكوس التى كان قطز قد فرضها عليهم، وربطه لعيذاب بقوص بطريق

البريد المار بلقيطة وحميثرا وعيذاب وسواكن، أتاح الفرصة للكارمية أن يستعيدوا نشاطهم التجارى عبر ميناء مصر الأعظم على البحر الأحمر وأعنى به عيذاب : ففى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢م) قاموا برحلتين تجاريتين بدلاً من رحلة واحدة كعادتهم[١٤٤] ووجدوا فى مصر حصن الأمان والاستقراروالعدل.

(٥)
عيذاب والقصير ودورهما فى التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر والحج

أ- عيذاب : الميناء التجارية الأولى فى مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى :

تختلف المصادر العربية فى تحديد اسم البلد الذى تنتمى اليه عيذاب فبينما ينسبها البعض إلى الحبشة[١٤٥] يرجع البعض الآخر نسبتها إلى مصر[١٤٦] وهو الأصح إذ كانت عيذاب منذ ظهورها كميناء بحرية قطعة من أرض مصر يتولاها وال، ويفصل فى القضايا بين أهلها قاض، وينظر فى شئون الجبايات والمكس ناظر من قبل الحكومة، ولم تكن عيذاب مدينة محدثة الإنشاء أسست فى العصر الإسلامى، فمن المعتقد وإن كنا نفتقد إلى الأدلة أنها مدينة قديمة الإنشاء، وربما كان لها دور فى العصر الفرعونى كميناء لاستغلال معدن الذهب والزمرد اللذين يتوفران فى أقصى جنوب مصر بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب، على غرار ميناء ساوو بوادى جاسوس التى كانت تقلع منها السفن المصرية إلى بلاد بونت.

ومن المرجح أيضا أنها كانت تؤدى هذه الوظيفة نفسها فى العصرين البطلمي والروماني وكذلك فى فترة الحكم البيزنطى، ثم استخدمها العرب بعد الفتح العربى لمصر ويربط كاميرير Kammerer نشأتها بتعدين الذهب في وادى العلاقى، إذ كانت بحكم موقعها فى أقصى جنوب الساحل المصرى أسهل اتصالاً بمناجم هذا الوادى من ثغر ليكوس ليمن Leucos Limen (القصير). وربما تكون قد دثرت فى العصر البيزنطى وكان ذلك سبباً فى اهتمام العرب بتعميرها واتخاذها فرضة هامة فى فجر الإسلام(١٤٧) لقربها من جدة ميناء مكة، فقد ذكر اليعقوبى (ت٢٨٤ هـ) أن "من العلاقى إلى عيذاب أربع مراحل، وعيذاب ساحل البحر المالح، يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن، ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك فى المراكب"(١٤٨). وذكرها البلاذرى(ت٢٧٩ هـ) فى سياق حديثه عن حملة بقيادة رجل يقال له القمى، وجهه الخليفة المتوكل على الله العباسى لمحاربة البجه، فخرج من القلزم ورسا بساحل عيذاب حيث وافته المراكب، واستعان بما وصله من ميرة ثم خرج منها إلى بلاد البجة وحاربهم وتغلب عليهم فى سنة ٢٤١ هـ(١٤٩). كذلك كانت عيذاب تمارس عملها كميناء تبحر منه السفن إلى جدة فى العصر الطولونى، فاليها لجأ ابن الصوفى (ابراهيم بن محمد بن يحيى العلوى) سنة ٢٥٩ هـ ومنها ركب البحر إلى مكة، فأقام

بها، ثم، بعث به والى مكة إلى أحمد بن طولون، فسجنه، ثم أطلقه[١٥٠].

تقع مدينة عيذاب فى أقصى الساحل الجنوبى لمصر المطل على البحر الأحمر على مقربة من الحدود المصرية السودانية. ولم يكن موقعها معروفاً حتى سنة ١٨٩٦، إذ كان الظن – وفقاً لرأى على باشا مبارك – أن عيذاب كانت تقوم فى موقع برنيس القديمة قبالة مدينة أسوان على وادى النيل[١٥١]. ولكن تيودر بنت Theodore Bent توصل فى أعقاب رحلته التى قام بها فى سنة ١٨٩٦ إلى تحديد موقع عيذاب بفضل تعرفه على خرائبها، على مسافة تبعد نحو ١٢ ميلاً شمالى قرية حلايب، وتعرف هذه الخرائب عند بدو البشارية فى الوقت الحاضر باسم سواكن القديم، وقد نبّه تيودربنت إلى أطلالها، ونشر وصفاً لهذه الأطلال والخرائب فى المجلة الجغرافية الملكية فى نفس العام الذى زارها فيه[١٥٢]. وفى سنة ١٩٢٥-١٩٢٦، وبعد ثلاثين سنة من الدراسة التى قدمها بنت Bent أجرى الباحث الأثرى مـــــورى G. Murray مسحاً لمنطقة حلايب وجبل علبة، كما أجرى حفريات أولية فى الموقع الذى حدده بنت من قبل لعيذاب أسفرت عن كشف آثار المسجد الجامع وصهاريج المياه وعن العثور على قطع من العملات النحاسية من عهد الظاهر بيبرس، وبعض قطع من السيلادون الصينى يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الهجرى، كما تم الكشف عن

مقبرة ضخمة تضم أعداداً كبيرة من المدافن، وتشير كثرتها الى ما كان يتعرض له الشيوخ من الحجاج من متاعب وصعوبات أدت إلى كثرة وفياتهم[١٥٣]. وقد نجح مورى فى وضع خريطة لعيذاب وحدد الموقع الذى كانت تقوم عليه بخـــط عرض ٤٧ً ١٩َ ٢٢° شمالاً وخط طول ٣٢ً ٩َ ٣٦° شرقاً[١٥٤]. ويتبين من هذا التحديد أنها كانت تقع إلى الجنوب بمسافة قصيرة من خرائب برنيس القديمة[١٥٥]. وأصدر مورى عنها دراسة قيمة نشرها فى سنة ١٩٢٦[١٥٦].

ولقد ارتبط ظهور عيذاب فى العصر الفاطمى كميناء هامة للتجارة الشرقية وفرضة للأراضى المقدسة ارتباطاً وثيقاً بتطور الملاحة فى البحر الأحمر[١٥٧]، منذ ذلك العصر بالذات فى الفترة من سنة ٣٨٠ هـ تقريباً إلى عصر السلطان الملك الأشرف برسباى فى سنة ٨٣٠ هـ التى خربت فيها، أى أنها ظلت تمارس دورها فى التجارة الشرقية زهاء أربعة قرون ونصف القرن، منها قرنان نعمت خلالهما بازدهار حقيقى، فقد تألقت منذ سنة ٤٦٠ بسبب الشدة المستنصرية عندما أصبح طريق القلزم وسيناء محفوفاً بالأخطار نتيجة للحرب الأهلية فى الحوف الشرقى والقاهرة، وواصلت تألقها طوال العصر الأيوبى بسبب غلبة القوى الصليبية على المنطقة الجنوبية من بلاد الشام، بحيث أصبحت الميناء الرئيسية للحط والإقلاع عبر البحر

الأحمر سواء للتجارة أو للحج إلى الأراضى المقدسة، الى أن أعاد السلطان الظاهر بيبرس استخدام الطريق القديم لقوافل الحج فى سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) ، ومنذ هذا التاريخ قل سلوك الحاج لصحراء عيذاب، وان ظلت تزاول وظيفتها بالنسبة للسلع الواردة من اليمن حتى بطل استخدام هذا الطريق بالتدريج بعد سنة ٧٦٠ هـ فى قول(١٥٨) وسنة ٧٨٠ هـ فى قول آخر(١٥٩) عندما حلت ميناء الطور محل عيذاب. ثم بدأت عيذاب تنحدر نحو اضمحلال محتوم إلى أن دثرت فى عهد برسباى سنة ٨٣٠ هـ وفقاً لما يزعمه الحسن بن محمد الوزان المعروف بجان ليون الافريقى وهو رحالة مغربى توفى بتونس فى حدود سنة ٩٦٠ هـ(١٦٠).

بدأت عيذاب تظهر فى خريطة مصر كثغر تجارى وميناء رئيسية، يعبر عنها حجاج مصر والمغرب إلى ساحل جدة، منذ الشدة المستنصرية، وأصبحت موضع اهتمام الدولة الفاطمية لحماية التجارة الشرقية من اعتداءات القراصنة، فخصص الفاطميون لحماية هذه التجارة من سطو القراصنة أسطولا يتألف من خمسة سفن كانت ترابط فى مياه عيذاب(١٦١). وعلى الرغم من مرابطة هذه السفن فى مياه عيذاب فقد ظلت قوافل السفن التجارية القادمة من عدن إلى عيذاب تتعرض لاعتداءات القراصنة، فقد حدث فى سنة ٥١٢هـ أن تعرضت سفن التجار القادمين من اليمن إلى

عيذاب لجماعة من قراصنة البحر، سيرهم قاسم بن أبى هاشم صاحب مكة لمهاجمة التجار ونهب مراكبهم، فبادر التجار ببث شكواهم إلى الوزير الأفضل شاهنشاه، فغضب الأفضل لذلك وهدد بارسال أسطول أوله عيذاب وأخره جدة[١٦٢]، ويادر بالكتابة إلى اشراف مكة يبلغهم بماأقدم عليه أميرها، ويهددهم بغزو بلادهم، ومقاطعة التجار المصريين لأسواق الحجاز، فاضطر أمير مكة أمام هذا التهديد إلى اعادة ما كان قد انتهبه رجاله من بضائع التجار وأموالهم، فتسلمها التجار فى الجامع العتيق. ومن المرجح أن يكون الأسطول المكون من خمسة سفن التى خصصها الفاطميون لحماية سفن الكارم من اعتداءات القراصنة، اجراء اتخذته السلطات الفاطمية، عقب العدوان الذى وقع على سفن الكارم فى سنة ٥١٢هـ.

وهناك عوامل ثلاثة ساعدت على تفوق عيذاب على غيرها من موانئ مصر المطلة على البحر الأحمر فى العصر الفاطمى:-

(١) أنها كانت بالنسبة للحجاج المغاربة والمصريين أقرب موقع للعبور إلى جدة فرضة مكة، باعتبار أنها تقع قبالة جدة الواقعة على السيف الشرقى للبحر الأحمر، ولذلك فان المسافة التى تفصل بينها وبين جدة بحراً أقل بكثير من غيرها من المرافئ المصرية كالقصير مثلاً.

(٢) وكان تفريغ السلع الشرقية فى ميناء عيذاب يُجنب السفن المزيد

من المخاطر فى بحر ملئ بالشعاب المرجانية التى تزداد كثافة على سواحل البحر الأحمر كلما اتجهنا شمالاً، ثم إن مياهها كانت تخلو غالباً من الشعاب المرجانية التى تشكل أعظم خطر يهدد الملاحة ويتسبب فى تحطيم السفن وغرقها(١٦٣).

(٣) قل استغلال معدن الذهب من وادى العلاقى فى العصر الفاطمى، ولذلك هبطت حمى استخراجه التى شغلت القرن الثالث الهجرى وذلك وفقاً لما رواه الإدريسى، كما أن مناجم الزمرد أصبحت منذ هذا العصر خاملة، ولهذا لم يعد أمام قبائل العرب والبجة الذين كانوا يتطاحنون دوما فى العهود السابقة فى صحراء عيذاب سوى الاشتغال بقيادة قوافل التجارة عبر وديان الصحراء الشرقية(١٦٤).

وبلغ ازدهار عيذاب منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، بسبب تحول قوافل التجار والحاج عن طريق القلزم وسيناء إلى الطريق النهرى عبر النيل حتى قفط أو قوص أو أسوان، ثم عبر وديان الصحراء الشرقية إلى عيذاب، حداً جعلها تصبح توأماً فى الأهمية لثغر عدن، واجتذبت تجار الكارم الذين ارتبط ظهورهم بازدهارها وأفل نجمهم بانهيارها(١٦٥). ومما لا شك فيه أن ازدهار عيذاب إنما حدث نتيجة طبيعية لاهتمام خلفاء مصر الفاطمية وسلاطين بنى أيوب بعد ذلك بحركة التجارة فى البحر الأحمر، فقد

أحاطوها برعايتهم، وحرصوا على تأمينها براً وبحراً، ومن مظاهر عناية حكام مصر الإسلامية بالتجارة فى البحر الأحمر أنهم وضعوا شروطاً صعبة لاختيار قاضى عيذاب، وكان لا يشترط فى اختيارهم كفايات عالية فى مجال الفقه وعلوم الشريعة بقدر ما كانوا يقدمونه من خدمات للمسافرين المارين بعيذاب تجاراً كانوا أم حجاجاً، ومن وسائل التخفيف عنهم والعمل على راحتهم من رحلة العذاب فى صحراء عيذاب أو فى بحر القلزم(١٦٦). كذلك حرص الفاطميون على بسط مظال الأمن فى ربوع عيذاب وضبط صحرائها الشاسعه الممتدة حتى وادى النيل عند قوص أو أسوان حتى يأمن التجار على متاجرهم، كما حرصوا على حماية سفن التجار من اعتداءات قراصنة البحر الأحمر كماسبق أن أشرنا، وقد لاحظ الرحالة الفارسى ناصرى خسرو علوى مدى ما كان يستشعره التجار فى عيذاب من الأمن، وسجل هذا الانطباع فى قوله : أما الأمن الذى رأيته هناك فإننى لم أره فى بلد من قبل(١٦٧). وقد أصبح الاهتمام بسلامة الطريق من عيذاب إلى قوص تقليداً متبعاً فى العصر الأيوبى، فقد بذل الناصر صلاح الدين يوسف وخلفاؤه من بنى أيوب وكذلك ولده الناصر محمد فى ذلك جهوداً ضخمة لاجتذاب التجار إلى مصر وتشجيعهم على التجارة، وهو موضوع سنتحدث عنه فى فصل لاحق، وترتب على ازدهار

عيذاب ازدهار قوص طوال العصر الفاطمى والعصور التالية بسبب رواج التجارة فى البحر الأحمر، واتصال عيذاب بقوص. وكان أهالى عيذاب ومن يتردد عليها من التجار يتعاملون بالصكوك فى العصر الفاطمى، ويسوق ناصرى خسرو مثلاً لذلك، فيذكر أنه عندما كان فى أسوان زوده صديق له من أهل أسوان يدعى أبو عبدالله محمد بن فليج من قبيل الاحتياط برسالة موجهة إلى وكيله بعيذاب يأمره فيها بأن يعطى ناصرى خسرو ما يريد مقابل صك للحساب، فلما وصل ناصر خسرو إلى عيذاب وتعطل سفره ثلاثة شهور بسبب عدم اقلاع السفينة وبقائها فى الميناء انتظاراً لهبوب الرياح الجنوبية التى تدفعها نحو الشمال، اضطر إلى تسليم رسالة ابن فليج إلى وكيله بعيذاب، فبادر هذا من فوره بتسليمه مائة منّ من الدقيق مقابل صك أرسله الوكيل إلى أسوان(١٦٨).

وكان مرسى عيذاب شبه جزيرة صغيرة المساحة، ويشبهها ابن دقماق بالضيعة(١٦٩)، ويصف الحميرى مساكنها فيذكر أن أكثر بيوتها اخصاص، وفى موضع آخر يذكر أن بعضها من حجارة(١٧٠).

ب- درب الحج الجنوبى عبر صحراء عيذاب فى العصرين الفاطمى والأيوبى:

رأينا كيف أن الحج إلى الحجاز كان يتم قبل الشدة المستنصرية عن طريق سيناء، فكان الحجاج يتجمعون فى موضع يعرف بجب عميرة نسبة إلى عشيرة عميرة من قبيلة تميم، ثم أطلق عليه اسم الجب، وانتهى الأمر بها أن عرفت ببركة الحاج[١٧١]. وبعد أن يتجمع الحاج يقبل الخليفة الفاطمى فى زيه الرسمى وعلى رأسه عمامة مرصعة بالجوهر، وتنشر عليه المظلة، فيجلس فى توديع الحجاج على دكة، تعرف بدكة الوقار. فلما كانت الشدة المستنصرية وقيام الحرب الأهلية فى القاهرة والأقاليم وما تبع ذلك من اضطراب ميزان الأمن فى البلاد، بالإضافة إلى قيام مملكة بيت المقدس الصليبية وتعرض مصر لغاراتهم من جهة الشمال الشرقى، أصبح درب الحج عبر سيناء محفوفاً بالأخطار، مما دفع السلطات الحاكمة إلى التماس الطريق الجنوبى عبر نهر النيل إلى قوص أو أسوان، ومن هناك يسلك الحجاج برية عيذاب عبر وادى العلاقى إلى عيذاب أو عبر وادى الحمامات إلى القصير، ومن هاتين الميناوين كانوا يركبون البحر إلى جدة أو ينبع[١٧٢]. وكان الحجاج يؤثرون سلوك هذا الطريق النهرى إلى قوص ثم طريق قوص

-برية عيذاب إلى ثغر عيذاب رغم ما كان يكتنف هذا الطريق من صعوبات سواء أثناء اجتياز البرية الذى يستغرق أياماً كثيرة أو اثناء ركوب السفن إلى ثغر جدة. ومع هذه المشاق فإن الحج كان يتوقف فى بعض السنيين بسبب ما كان يلقاه الحجاج من مضايقات يتعرضون لها من البدو بسبب القحط الذى كان يسود الحجاز فى معظم الأحيان. ويذكر السيوطى أن بنى هلال وطائفة من العرب خرجوا فى سنة ٣٦٣ هـ على الحجاج فقتلوا منهم خلقا كثيراً، وعطلوا على من بقى منهم الحج فى ذلك العام، ثم يذكر بعض السنوات التى انقطع فيها الحج مثل سنة ٤١٩، وسنة ٤٨٨[١٧٣]، وكانت الدولة الفاطمية تبعث بين الحين والحين كميات من القمح إلى شريف مكة اسهاماً فى القضاء على القحط والمجاعات التى كانت تجتاح الحجاز بين الحين والحين، وبالتالى تخفيفاً لعبث العربان والبدو فى طريق الحاج، من ذلك أن الخليفة الفائز بنصر الله ووزيره الصالح طلائع بن رزيك أرسلا فى سنة ٥٥٠هـ إلى قاسم بن فليته شريف مكة مائة أردب من القمح أرسلت إليه عن طريق ناصر الدولة والى القوص[١٧٤].

وقد تكون الصعاب التى يلقاها الحجاج أثناء اجتيازهم درب الحج البرى عبر سيناء وسواحل الحجاز الشمالية[١٧٥]. وتعرضهم لهجمات الأعراب وقطاع الطرق بالإضافة إلى الالتزامات المالية التى كانت تفرضها

بعض القبائل المسيطرة على درب الحج من مصر، وكذلك كثرة الأخطار التى كانت تتعرض لها السفن عندما تقلع من القلزم[١٧٦]، وعجز الدولة الفاطمية منذ الشدة المستنصرية وبالذات منذ سنة ٤٥٠هـ[١٧٧] عن القضاء على هذه الصعاب، من بين العوامل التى دفعت المسؤولين فى مصر إلى تغيير مسار طريق الحج، وتوجيه الحجاج مغاربة ومصريين إلى ركوب البحر من عيذاب[١٧٨]، وليس معنى ذلك أن الطريق البحرى من عيذاب لم يكن مطروقاً قبل هذا التاريخ أو أن درب الحج كان قاصراً على الطريق السينائى البرى أو من القلزم إلى ينبع أو الجار بحراً ، فقد كان طريق عيذاب معروفاً منذ بداية القرن الثالث الهجرى، لا سيما عند الحجاج المغاربة، وكذلك كان الشأن بالنسبة لطريق القلزم وان كان يلى فى الأهمية الطريق البرى عبر سيناء وطريق عيذاب وذلك لطول المسافة البحرية التى تقطعها السفن من القلزم إلى موانئ الحجاز ومايترتب على ذلك من المخاطر[١٧٩].

ولكن الطريق البرى كان مفضلاً إبان القرن الثالث الهجرى وحتى منتصف القرن الرابع ربما لإحجام الحجاج عن ركوب البحر، أو خوفاً من التعرض للغرق وأخبار تعرض السفن للغرق فى البحر الأحمر عديدة بسبب كثرة الصخور الناتئة والتروش الطافية والشعاب المرجانية التى تعترض طريق

السفن[١٨٠]: فالمقريزى يذكر أنه فى ٢٢ من المحرم سنة ٥٨٠هـ ورد الخير بغرق أربعة جلاب كانت تحمل ١٣٠٠ حاج[١٨١]، هلكوا جميعهم .ومن حوادث الغرق أيضاً أن سفينة كانت متجهة إلى اليمن تحمل تجارة لكريم الدين أكرم بن هبة الله ناظر الخاص ومتولى الشئون المالية للناصر محمد ابن قلاوون، قيمتها مائة ألف دينار، غرقت فى بحر القلزم وغرقت جميع ما كانت تحمله من سلع لكريم الدين أكرم ولغيره، ولم يسلم من ركابها سوى سبعة أنفس[١٨٢]. ويذكر ابن بطوطة أنه لما أدى فريضة الحج توجه إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند، فأقام بها نحو أربعين يوماً، وكان بها مركب لرجلٍ يعرف بعبدالله التونسى يروم السفر إلى القصير من عمالة قوص، فصعد إلى المركب ليعاينه ويفحص حالته، فلم ترضه ولا طابت نفسه بالسفر عليه، ويقول ابن بطوطة: "وكان ذلك لطفاً من الله تعالى، فانه سافر، فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبى محمد، وهلك معظم من كان فيه، وكان فيه نحو سبعين حاجاً[١٨٣]. ويسوق المقريزى فى حوادث سنة ٧٩٤هـ خبراً يتعلق بغرق نحو ثلاثين سفينة فى بحر جدة بسبب ريح عاصف[١٨٤].

ويورد فى حوادث سنة ٨٣٢ هـ خبرا عن غرق مركب كانت تحمل حجاجا يزيد عددهم على ثمانمائة حاج غرقوا جميعاً باستثناء ثلاثة

رجال[١٨٥]. ويهمنا الطريق البحرى الجنوبى الذى كان الحجاج يؤثرون السفر فيه الى الحجاز وأعنى به طريق عيذاب (أو القصير)-جدة، لقصر المسافة التى تقطعها السفن مابين الميناوين.

وكان الحجاج الذين يسلكون الطريق الجنوبى يركبون السفن النهرية فى النيل من ساحل الفسطاط، فتقلع بهم جنوباً إلى قوص، وهناك يقيمون بعض الوقت فى أحد فنادقها يتميرون ويتجهزون للرحلة البرية عبر صحراء عيذاب، ثم يخرجون فى قافلة الحاج الى المبرز، وهو موضع فسيح الساحة بقبلى قوص على مقربة منها يجتمع فيه رجال الحاج والتجار[١٨٦]، ويبدأون منه رحلتهم التى يقطعون فيها البرية على الأبل إلى عيذاب فى صحراء جدباء لا عمارة فيها[١٨٧]، وهى طريق طويلة يقطعها المسافر فى ١٨ يوماً، ولكنها تتميز بوجود ثلاث محطات تتوفر فيها المياه فى الآبار، يذكر الزهرى أن البئر الأولى كانت تسمى بقش والثانية الحبش والثالثة بئر الجيب، وهى آخر آبار صحراء عيذاب[١٨٨].

أما الطريق الثانى فاقصر نوعاً ما، إذ أن عيذاب تقع قبالة أسوان، والمسافة التى يقطعها المسافر من أسوان إلى عيذاب عبر وادى العلاقى تستغرق ١٥ يوماً[١٨٩]. وقد سلك ناصرى خسرو الطريق الثانية من أسوان إلى عيذاب، فى حين سلك ابن جبير الطريق الأولى الأطول فى رحلته إلى

الحجاز. ونلاحظ أن عدد المترددين من الحجاج على طريق قوص - عيذاب - جدة ازداد زيادة ملموسة منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، وساعد على ذلك خروج معظم الشام من دائرة النفوذ الفاطمى من جهة والشدة المستنصرية من جهة أخرى ، وقبل أن يمضى القرن الخامس الهجرى الهجرى كان الفرنج قد سدوا بمملكتهم اللاتينية فى بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ، وملحقاتها فى الكرك والشوبك، الطريق إلى الشام والحجاز، وعندئذ تحول طريق الحج من البر عبر شبه جزيرة سيناء إلى الطريق الجنوبية قوص-عيذاب-جدة، وأصبحت عيذاب بالضرورة أهم المنافذ المصرية المطلة على البحر الأحمر للعبور إلى جدة[١٩٠]، كما أصبحت قوص منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى منطلقاً لخروج الحجاج إلى عيذاب وهو ماأكده المقريزى فى قوله: "أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص، ثم يركبون الإبل من قوص، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون فى البحر إلى عيذاب، ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص(فى العودة) ومنها يردون مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج، حتى أن أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد

ملقاه بها، والقوافل صاعدة وهابطة لا يتعرض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها، فلم تزل مسلكاً للحجاج فى ذهابهم وايابهم زيادة على مائتى عام، من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله، وانقطاع الحج فى البر إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة، وعمل لها مفتاحاً، ثم أخرج قافلة الحاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء[١٩١].

ويعتقد الأستاذ جارسان أنه إذا كان الحجاج قد آثروا قوص مركزاً لتجمعهم تمهيداً لانطلاقهم إلى عيذاب فلأن هذه الطريق (قوص - عيذاب) كانت أكثر أمنا للمسافرين إلى الأراضى المقدسة من غيرها من الطرق الجنوبية سواء من قفط أو من أسوان أو من إدفو[١٩٢]، وذلك منذ أن اتخذت مقراً لوالى الصعيد الأعلى، وإذا كانت قوص قد أصبحت آنذاك باب الحجاز[١٩٣]، فإن ذلك لم يكن بسبب موقعها من الوادى ،إذ كان موقع قفط فيما يبدو أفضل بكثير بالنسبة للحجاج من موقع قوص، بل فاقتهما إدفو التى كانت منطلقا لطريق أكثر يسراً، وأقصر مسافة، من طريقيهما.

ويرجع السبب الحقيقى فى إيثارهم لقوص إلى أنها أصبحت المركز الإدارى والعسكرى للصعيد[١٩٤]، الذى يكفل الأمن للقوافل التى تخرج منها

إلى عيذاب، بينما كانت أسوان أكثر تعرضاً للخطر القادم من الجنوب بحكم موقعها على مقربة من بلاد النوبة وبلاد البجة[١٩٥]، ولأن واديها ضيق للغاية[١٩٦] بحيث يتعذر اتخاذها مقراً للقوة المدافعة عن الصعيد الأعلى. ويستطرد جارسان قائلاً: وكان لاتخاذ قوص مركزاً عسكرياً فى صعيد مصر الأعلى نتائج طيبة، ففى النصف الثانى من العصر الفاطمى لم تشتعل ثورة واحدة فى الجنوب رغم حالة الضعف التى آلت إليها الخلافة الفاطمية[١٩٧].

وكانت قوص فى العصرين الفاطمى والأيوبى مدينة "حفيلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة، لأنها مخطر للجميع، ومحط للرجال، ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب، وإليها انقلابهم فى صدورهم من الحج[١٩٨].

وفى عيذاب كان ربان الجلبة التى تتولى نقل الحجاج إلى جدة يفرض على المغاربة منهم مكسا قدره $\frac{1}{2}$ ٧ دينار عن كل واحد منهم[١٩٩]، فإذا ما وصلت الجلبة إلى ساحل جدة كان متولى الديوان ينظر فيمن يحملون مكوسهم، فاذا اكتشف أحداً لا يحمل مكسه حرمه من أداء الحج، بل يأمر

بسجنه وتعذيبه[٢٠٠]، إلى أن تنقضى فترة الحج[٢٠١] وظل هذا المكس يفرض عليهم طوال العصر الفاطمى إلى أن ألغاه الناصر صلاح الدين يوسف فى سنة ٥٧٢هـ، وفى ذلك يقول المقريزى: " وفيها (سنة ٥٧٢هـ) أبطل السلطان المكس المأخوذ من الحجاج فى البحر إلى مكة على طريق عيذاب، وهو سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان، وكانوا يؤدون ذلك بعيذاب أو بجدة، ومن لم يؤد ذلك منع من الحج وعذب بتعليقه بأنثييه، وعوّض أمير مكة عن هذا المكس بألفى دينار وألف أردب قمح سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن، وقيل أن مبلغ ذلك ثمانية آلاف إردب قمح تحمل إليه إلى جدة[٢٠٢]. وكان صلاح الدين قد أوقف قبل ذلك بثلاث سنوات (فى سنة ٥٦٩هـ) " ناحية نقادة من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى وثلث ناحية سندبيس من القليوبية على ٢٤ خادماً لخدمة الضريح الشريف النبوى وضمّن ذلك كتابا ثابتاً تاريخه ٢٨ ربيع الآخر سنة ٥٦٩هـ"[٢٠٣].

ويمتدح ابن جبير الإجراء الذي قام به صلاح الدين من اسقاط المكس، ويعده مفخرة من مفاخره، وأثراً طيباً من اثاره الباقية للدنيا والدين، فيقول: "ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التى ابقاها ذكراً للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفةً على الحجاج مدة دولة العبيديين، فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها عنتاً مجحفاً،

ويسامون فيها خطة خسف باهظة، وربما ورد منهم من الأفضل لديه على نفقته أولا نفقة عنده، فيلزم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التى هى خمسة عشر ديناراً مؤمنية[٢٠٤] على كل رأس، ويعجز عن ذلك، فيتناول بأليم العذاب بعيذاب، فكانت كإسمها مفتوحة العين، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأنثيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة، نعوذ بالله من سوء قدره وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب، ووصلُ اسمه غير معلّم عليه علامةُ الأداء، فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين، ودفع عوضاً منه مايقوم مقامه من أطعمه وسواها[٢٠٥]. كما أمر صلاح الدين والى قوص فى سنة ٥٧٧ هـ بإبطال المكوس التى كانت تستأدى من الحجاج وتجار اليمن[٢٠٦]، وهى مكوس كانت تفرض على الحاج فى ديوان منية ابن الخصيب(المنيا) وأخميم وقوص كزكاة وفقاً لما ذكره ابن جبير. ويعتقد جارسان[٢٠٧] أن الأمر الصادر بإبطال المكوس لم ينفذ بدليل أن ابن جبير تحدث عن هذه المكوس أثناء مروره بهذه المدن فى رحلته النيلية لأداء فريضة الحج عبر قوص – عيذاب، يقول ابن جبير: " وببلاد هذا الصعيد المعترضة فى الطريق للحجاج والمسافرين لإخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وإدخال

الأيدى إلى أوساط التجار فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبح سماعه، وتستشنع الأحدوثة عنه، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو مايدرك النصاب منها ... وربما ألزموهم الإيمان على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك، ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه، فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكّرهم أيام المكوس، وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه، ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه.... ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة فى أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها، فلا يتركون عكما ولا غرارة إلا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة، مخافة أن يكون فى تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزاد شئ غُيّب عليه من بضاعة أو مال(٢٠٨).

وبسقوط المكس عن الحجاج أصبحت المكس قاصرة على تجار عيذاب الذين استقرت فيهم الزكاة وواجب الذمة فقط(٢٠٩).

ولقد حرص صلاح الدين منذ تأسيسه للدولة الأيوبية على السيطرة على الملاحة فى البحر الأحمر وتأمينها بالنسبة للسفن الإسلامية ، ومما لاشك فيه أن قيام إمارة الكرك الصليبية كان حافزاً له على بذل مزيد من الجهد لتنفيذ سياسته تجاه البحر الأحمر وتأمين الملاحة فيه سواء مايتعلق

بالتجارة الشرقية أو بسلامة الحجاج، وذلك عن طريق التصدى لكل محاولة للعبث فى هذا البحر، والبطش بأى قوة صليبية تقدم على التسلل إلى عمق هذا المعبر المائى الهام استراتيجيا أو اقتصاديا، وكان يستهدف قصر هذا البحر على خدمة المصالح الإسلامية.

وظل الطريق البحرى الجنوبى يؤدى مهمته بالنسبة للحج والتجارة حتى بعد أن حرر صلاح الدين جنوب الأردن وفلسطين من السيطرة الصليبية، وبعد أن عقدت بينه وبين الفرنج هدنة عامة فى البر والبحر لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر فى ٢٢ شـعبان ٥٨٨هـ، ولم يتحول طريق الحج عن مساره الجنوبى عبر برية عيذاب طوال العصر الأيوبى ربما بسبب المنازعات القائمة بين أمراء البيت الأيوبى[٢١٠]، ومن جهة وتعرض دمياط لحملتين صليبيتين متتابعتين: حملة جان دى برين فى عهد الكامل محمد(٦١٥هـ)[٢١١] وحملة لويس التاسع(٦٤٧هـ)[٢١٢]. وبالنسبة للحجاج المغاربة استمر هذا الطريق الجنوبى يحتفظ بقيمه الروحية التقليدية، فكانوا يحرصون بعد مغادرتهم القاهرة فى طريقهم إلى الصعيد على زيارة أسكر وهى القرية التى قيل أنها شهدت مولد موسى عليه السلام والمدينة المنسوبة إلى يوسف عليه السـلام، وموضع السجن الذى وضع فيه، ومسجد ابراهيم

عليه السلام الذى كان قائماً جنوبى منية ابن الخصيب. ويعلق الاستاذ جارسان على ذلك بأن وادى النيل له أهمية دينية بالنسبة للحجاج المغاربة بوجه خاص، إذ كان يمثل للحاج المغربى الواجهة الأمامية للأراضى المقدسة ويستند فى ذلك على رواية للإدريسى الذى لاحظ فى منتصف القرن السادس الهجرى أن أهل بلدة دماميل (دمامين)، وهى بلدة صغيرة تقع على بعد نحو سبعة أميال جنوبى قوص من أصول مغربية[٢١٣] فقد كان من المألوف أن بعض الحجاج المغاربة يؤثرون الاستقرار فى بعض مدن الصعيد مثل قنا ودشنا وذلك بعد أدائهم لفريضة الحج[٢١٤]. وهكذا ظل طريق قوص – عيذاب – يحتفظ بأهميته كطريق لقوافل الحج حتى نهاية عصر الدولة الأيوبية، ويكفى أن سلكه الشيخ أبو الحسن على الشاذلى الزاهد (ت ٦٥٦هـ)[٢١٥].

وعلى الرغم من تناقص عدد الحجاج السالكين لهذا الطريق منذ سنة ٥٨٨ هـ التى عقدت فيها الهدنة بين الفرنج والمسلمين[٢١٦]، بسبب تفضيل بعض حجاج مصر والمغرب اتخاذ طريق السويس – العقبة القديم إلى الحجاز تجنباً لأهوال الرحلة عبر برية عيذاب ومخاطر الرحلة البحرية فى البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة ذهاباً وعودة فإن هذا التحول لم يستكمل تماماً إلا فى العصر المملوكى[٢١٧] الذى تم فيه القضاء على الكيان الصليبى

فى الشام الجنوبية، ولم يصبح الطريق البرى عبر سيناء آمناً على هذا النحو إلا بعد ان تم عقد الاتفاقية سالفة الذكر، ويروى المقريزى خبر خروج الشريف ابن ثعلب فى ١٤ شوال سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥م) سائراً بالحاج. وخيّم على سقاية ريدان[٢١٨]، وتقع بين القاهرة وبلبيس فى الطريق إلى السويس. ويعتبر الأستاذ جارسان هذا الحادث بداية التحول فى طريق الحج إلى سيناء، ويعلل ذلك بصعوبة رحلة الحج عبر طريق قوص – عيذاب[٢١٩] وإن كنت أعتقد أن هذا التحول جاء نتيجة تفشى الأمراض فى مصر عامة وفى قوص بوجه خاص فى تلك السنة، فقد ذكر المقريزى أنه " ورد الخبر بأن قوص وأعمالها فيها أمراض فاشية وأموات لا تتلاحق"[٢٢٠].

وفى تصورى أن طريق قوص – عيذاب استمر يؤدى دوره كطريق تقليدى يسلكه الحجاج المغاربة والمصريون بعد هذا التاريخ وحتى سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧/١٢٦٨م)، رغم ما كان يعانيه الحجاج من مشاق الرحلة ومكارهها سواء أثناء اجتيازهم البرية أو جوازهم البحر إلى جدة[٢٢١]. ففى هذه السنة أخرج السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس قافلة الحج من البر عبر شبه جزيرة سيناء[٢٢٢] وذلك بعد زوال الخطر الصليبى من فلسطين. ومنذ ذلك التاريخ بدأ سلوك الحجاج لصحراء عيذاب يقل[٢٢٣] إلى أن اقتصر هذا الطريق على نقل التجارة الشرقية من عيذاب إلى قوص، وقد

عوض ذلك قوص كثيراً مما فقدته بسبب التحول الجزئى لطريق الحج إلى سيناء[٢٢٤]. ومع ذلك فإن مدينة قوص استمرت تحتفظ بالرسوم التقليدية التى كانت متبعة فى خروج ركب الحاج، فكان الناس يخرجون فى قوص حاملين المحمل فى احتفال دينى يجرى فى شوال من كل عام، وذلك ذكرى لخروج المحمل من قوص فى العهود السابقة، وعلى الرغم من تحول طريق الحج إلى سيناء فإن بعض الحجاج المصريين لاسيما من الصعيد والمغاربة واصلوا استخدام الطريق الجنوبية عبر صحراء عيذاب فى صحبة بعض التجار[٢٢٥] نذكر منهم على سبيل المثال الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى سلك طريق ادفو – عيذاب فى رحلته إلى الحجاز سنة ٧٢٦ هـ (لقصر هذا الطريق)، ويزودنا الإدفوى فى الطالع السعيد بأسماء بعض الفقهاء من أهل الصعيد أدوا فريضة الحج عبر عيذاب، ومنهم محمد بن عبدالمجيد الأرمنتى الذى خرج من قوص وتوجه إلى اليمن فى سنة ٧١٥ هـ، ومحمد بن سليمان بن أحمد القوصى (ت ٧٣١هـ) الذى توجه من عيذاب وعبر البحر إلى جدة ومنها إلى مكة[٢٢٦]. وكان حجاج المغرب والأندلس يؤثرون سلوك طريق عيذاب، إذ كانت الرحلة النهرية تتيح لهم الاتصال بشيوخ الصعيد، لا سيما فى مدينة قوص المركز العلمى الثانى فى مصر الإسلامية، ثم أن عيذاب نفسها كانت مركزاً هاماً لعلم الحديث[٢٢٧] حيث كانت ملتقى علماء

الحديث والفقه الذين يقيمون بها انتظاراً لاقلاع الجلبات إلى جدة فرضة مكة، وكان مقامهم بعيذاب يطول أحياناً فيجدها طلاب العلم والحجاج المغاربة فرصة مواتيه للاجتماع بهولاء الشيوخ الصادرين أو الواردين، ويؤكد ذلك النشاط الفكرى أبيات نظمها قاضى قوص أحمد بن ناشى بن عبدالله القوصى عندما منع السلطان بيبرس الحج عن طريق عيذاب فى حدود سنة ٦٨٠هـ، ربما لاضطراب الأحوال بعيذاب بسبب المصادمات بين القبائل المحلية، ثم عاد وأذن فيه، فعبر أحمد بن ناشى عن فرحته بالبيتين التاليين:

ياثغر عيذاب ابتسم　　　صدر الطريق لك انشرح

تالله لو وزن النبـــى　　　بكل مخلوق رجح(٢٢٨)

جـ- القصير ودورها فى التجارة البحرية والحج فى العصر الإسلامى:

يقع ثغر القصير القديم شمالى عيذاب، وكانت الميناء الثانية لمصر على البحر الأحمر من حيث الأهمية، لقربها من قوص وبعد عيذاب عنها(٢٢٩)، وكانت من الموانئ المعروفة فى تاريخ مصر القديم إذ كانت تعرف باسم تاوو(٢٣٠)، كما كانت تعرف فى العصر البطلمـــى باســم ليكوس ليمــن

Leucos Limen، وكان يربطها بقفط وادى الحمامات، ومازالت صخوره تحتفظ بنقوش مصرية قديمة ويونانية ورومانية وإسلامية تعبيراً عن أهميته كدرب تسلكه القوافل التجارية والباحثون عن الذهب والزمرد. وتقع آثار القصير القديم حالياً فى نفس الموقع الذى كانت تقوم فيه ليكوس ليمن البطلمية، على مسافة تبعد نحو ثمانية كيلو مترات إلى الشمال من مدينة القصير الحديثة فى نهاية وادى الحمامات الذى كان يصل طيبة القديمة (الأقصر) بالبحر الأحمر. وكانت القصير القديم من الموانئ التى ازدهرت تجارياً من القرن الأول الميلادى حتى الثالث، وتؤكد الأبحاث الأثرية التى أجريت فى موقعها فى موسم سنة١٩٧٨ أنها كانت مركزاً تجارياً هاماً بين الإمبراطورية الرومانية والهند فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد، ويثبت ذلك ماتم العثور عليه من وثائق مكتوبة ونقوش محفورة نبطية وهندية ووجود جالية هندية وعربية فى الموقع. ومن المعروف أن تجارة التوابل عبر البحر الأحمر كانت مورداً رئيسياً لتجارة مصر الخارجية فى العصر البطلمى وكذلك فى العصر الرومانى، وكانت ليكوس ليمن Leucos Limen (أى الميناء البيضاء) من أهم الموانئ المصرية المطلة على هذا البحر، وكانت تعرف باللاتينية باسم Albus Partus[٢٣١]. ومع أنها لم تكن أفضل الموانئ الطبيعية على الساحل الغربى من البحر الأحمر إلا أنها كانت تمثل

النهاية لأقصر الطرق المؤدية إلى النيل عبر الصحراء الشرقية، وكانت فقط آنذاك تمثل نقطة البداية لهذا الطريق الصحراوى الموصل إلى وادى النيل. وكان يحمى هذا الطريق ١٢ حصناً رومانياً أقيمت كمحطات لتزويد القوافل المارة بهذا الطريق بالمياه والأقوات، ويبلغ طول هذا الطريق نحو ١٨٠ ك.م. وقد عثر على نقوش وخربشات فى قطاعات كثيرة من الصخور على امتداد هذا الطريق من العصر الفرعونى والعصرين البطلمى والرومانى نقشها أقوام كان لهم دور فى عملية التعدين بمناجم هذا الوادى، بينما نقش بعضها تجار عابرون مما يؤكد أن هذا الطريق كان مألوفاً يرتاده عمال المناجم فى هذه العصور. ومن بين النقوش مايشير إلى بعثات فرعونية إلى بلاد بنت مما يؤكد أن التجارة الخارجية لمصر الفرعونية كانت تتخذ طريقها إلى البحر الأحمر عند نهاية وادى الحمامات. وقد عثر الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم أستاذ الآثار المصرية بجامعة الإسكندرية أثناء قيامه بالحفر فى وادى جاسوس الواقع على مقربة من وادى جواسيس (يقع على بعد ٦٠ ك.م. تقريبا إلى الشمال من القصير) على لوحة أثرية تسجل خروج بعثة مصرية إلى بنت، وتتضمن اسم الموقع الذى اتخذته البعثة ميناء للإقلاع(٢٣٢). وهكذا كانت كل مرحلة تاريخية من مراحل النشاط التجارى لميناء القصير تتفق مع مرحلة تاريخية تسيطر خلالها حكومة قوية لها دوافع

وأهداف تجارية، وفي هذه المرحلة كانت القصير ترتبط بإحدى مدن الصعيد الأعلى، فكانت طيبة فى العصر الفرعونى، وقفط فى العصر البطلمى والرومانى، وأسوان فى العصر الفاطمى، وقوص فى العصرين الأيوبى والمملوكى، وقنا فى العصر الحديث(٢٣٣). وأيا ما كان الأمر فإن هذه الميناء ارتبطت تجارياً منذ القدم مع بلاد اليمن والهند فى العصرين القديم والوسيط، كما خدم طريق الحج فى العصرين الأيوبى والمملوكى.

هُجرت القصير فى القرن الثالث الميلادى، وظلت مايقرب من ألف سنة فى زوايا الإهمال إلى أن استخدمت من جديد فى العصرين الأيوبى والمملوكى مع عيذاب مركزاً تجارياً هاماً للتجارة مع الهند واليمن وشرق افريقيا. ومن الواضح أنها كانت بالفعل من خلال ما تم العثور عليه فى موقعها القديم من لقى وآثار فرضة لقوص خلال القرنين السابع والثامن للهجرة، وتشير بعض النصوص التاريخية إلى حملة بحرية تتألف من نحو أربعين سفينة وجهها السلطان الظاهر بيبرس من عيذاب لمهاجمة سواكن انضمت اليها خمسة سفن أخرى مشحونة بالأجناد(٢٣٤). وقد تبقى من العصر المملوكى آثار مادية هامة تؤكد ازدهار هذه المدينة فى عصردولة المماليك(٢٣٥)، ويرجع سبب ازدهارها إلى قربها من مدينة قوص الحاضرة العلمية والتجارية للصعيد. وتشير رسائل سانوتو Sanuto إلى أن القصير

كانت فى نهاية القرن التاسع الهجرى مركزاً هاماً لتجارة التوابل، ففى صيف ٩٠٨هـ(١٥٠٢م) حملت شحنة كبيرة من التوابل قادمة من القصير عبر النيل تبلغ ضعف الشحنة التى وصلت عن طريق ميناء الطور [٢٣٦].

كانت القصير فى المصادر العربية فرضة قوص[٢٣٧] باعتبارها أقرب موانئ البحر الأحمر إلى قوص[٢٣٨]، وتفصلها عن قوص مفازة كان يقطعها المسافر فى ثلاثة أيام، ولكنها لم تبلغ مبلغ عيذاب فى كثرة تردد التجار والحجاج[٢٣٩]، لقرب عيذاب من ساحل جدة بالإضافة إلى أن الرياح الموسمية لا تدفع السفن التجارية كثيراً إلى الشمال أبعد من عيذاب[٢٤٠]، ولهذا اعتبرها الباحثون المحدثون ميناءً ثانوياً بالنسبة لعيذاب أقل أهمية منها، فى حين كانت عيذاب الميناء الأول لحجاج مصر والمغرب[٢٤١] إلى مكة والمرفأ الرئيسى للسفن المقلعة إلى اليمن[٢٤٢]. ومع ذلك فقد كان بعض الحجاج يؤثرون طريق القصير – جدة، ربما لقرب القصير من قوص، فابن بطوطة يذكر فى سنة ٧٢٦هـ أن بعض الحجاج كانوا يركبون المراكب من جدة إلى القصير[٢٤٣]. ويغلب على الظن أن ميناءى القصير وعيذاب كانا يستخدمان معاً فى العصر المملوكى، استناداً إلى رواية أوردها الكتبى المعروف بالوطواط فى كتابه " مباهج الفكر ومناهج العبر[٢٤٤]، ذكر فيها أن لقوص فرضتين القصير وعيذاب، ويصف الكتبى أخصاص عيذاب المقامة

من القصب ويشير إلى أن تجار اليمن ينزلون بها وتفرض عليهم المكس(٢٤٥).

ونستدل مما أورده القلقشندى على أن القصير أسهمت فى التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر، إذ كانت بعض المراكب تفضلها على عيذاب باعتبار أن القصير أقرب إلى قوص من عيذاب(٢٤٦). وتؤكد اللقى التى تم العثور عليها فى الحفائر الأثرية التى أجريت فى موقع القصير القديم، ومنها قطع من الخزف الصينى المعروف بالسيلادون وغيرها من التحف الخزفية الواردة من الصين ويرجع تاريخها إلى القرنين السادس والسابع للهجرة، هذا الإسهام الذى كانت تقوم به القصير فى التجارة الشرقية(٢٤٧)، ثم أن الخرائط الأوربية تبدأ منذ القرن الثامن الهجرى فى ذكر اسم القصير كميناء هامة للتوابل وان كانوا يخلطون فى بعض الأحيان بينها وبين قوص(٢٤٨). وهكذا تجمع النصوص التاريخية والوثائق الأثرية على أهمية القصير كميناء ثان فى عصر دولة المماليك الأولى للتجارة البحرية بعد عيذاب، أو على حد قول القلقشندى: "وإن لم يبلغ (يقصد ميناء القصير) فى كثرة الواصل حد عيذاب"(٢٤٩). ومن الجدير بالذكر أن بعثة أثرية أمريكية أجرت برئاسة الأستاذ دونالد ويتكومب Donald whitcombe وزوجته جانيت جونسون Janet Johnson أستاذة علم المصريات بجامعة شيكاغو أول حفريات أثرية (أولية) فى موضع القصر القديم فى ١٩٧٨،

وتركز البحث الأثرى فى ذلك الموسم على منطقة الميناء الرومانية، فقد تم حفر مجس فى الركن الشمالى الشرقى من الميناء الرومانية القديمة أسفر عن الكشف عن غرفة صغيرة، ولكن أعمال الحفر فى المستوى الإسلامى تركز على مجموعة منازل كانت تقوم على الجانب الشرقى من شبه جزيرة القصير كانت تكّون الجانب الغربى من الميناء القديمة. ويبدو أن الموقع كان فى الأصل رومانيا قبل أن يستخدم في العصر الإسلامى بدليل العثور على كميات كبيرة من اللقى الرومانية، كما أن بعض جدران المنازل التي يرجع تاريخها إلى العصر الإسلامى انتفع فى بنيانها من الجدران الرومانية. وقد أسفر البحث الأثرى عن كشف أفنية منازل وقاعات للمعيشة ومخازن تتفتح على مجموعة من الدروب والأزقة، كما عثر على كميات من بقايا تحف كانت مخصصة للاستعمال اليومى، منها قطع خزفية من البورسلين المجلوب من الصين، وأنواع من السيلادون، وقطع متنوعة من النسيج ذات أشرطة ملونة إحداها مطرزة. كذلك أسفر البحث الأثرى فى أحد المجسات عن كشف قطع من الخزف المزجج المدهون بألوان حمراء وبيضاء سورية الطابع، بعضها من النوع الشائع استخدامه فى شرق أفريقيا، وقطع من النسيج المطبوع المعروف بنسيج الفسطاط يبدو أنه من صناعة الهند، ويمكن تأريخه بين القرنين السادس والتاسع الهجرى. وقد زادت كمية هذه القطع

بعد المرحلة الثانية من الحفريات التى أجريت فى الموقع فى موسم ١٩٨٠ بالقطاع الشرقى، وعثر على كمية كبيرة من الرسائل على مستويات مختلفة من الطبقة الإسلامية مكتوبة باللغة العربية بحبر أسود اللون على ورق مجعد كما لو كانت قد قرئت وتجعدت بيد القارئ ثم ألقيت، منها مائة قطعة استخرجت من آثار بيت كبير المساحة، وكلها رسائل خاصة أو عبارات دينية وأدعية وتعاويذ، أحدها يحمل تاريخ ٦١٥هـ. وبالإضافة إلى ماسبق العثور عليه، تم الكشف عن قطع من قشر بيض النعام، مكتوب عليه، فى المقابر الواقعة بالركن الشمالى الشرقى من الموقع، وقد زاد العثور فى موسم الحفر سنة ١٩٨٠ على كميات من الأوراق والرسائل[٢٥٠]. وفيما يلى عرض موجز لبعض ماتم الكشف عنه من خلال التقارير العلمية الصادرة والتى تضمنت نتائج الحفر فى كل من الموسمين:

أولا: قطع الخزف الإسلامى المملوكى والقطع الزجاجية:

ينقسم ماعثر عليه من القطع الخزفية إلى ثلاثة أنواع: الفخار الشعبى والخزف المزجج والخزف المجلوب من الشرق الأقصى، ومعظم ماتم الكشف عنه من النوع الأول وهو الفخار غير المزجج، ويتميز بطينه بنية اللون تميل إلى الإحمرار، وبعض ما اكتشف من هذا النوع طيافير أو أطباق عميقة أشبه بالقدور كانت مخصصة فيما يبدو لتقديم الأطعمة وتزدان

بأشرطة متموجة. وهى فى العادة بنية اللون أو يميل لونها إلى اللون الأسود المحروق، وتتميز حافتها العليا عادة بأنها بارزة وسميكة. كما عثر على جرار منفوخة البدن وعارية من الزخارف، وأخرى تزدان بزخارف من أشرطة محزوزة، وبعضها مدهونة بلون أحمر أو أسود. وعثر أيضاً على قطع من جرار زخارفها معقدة تذكرنا بأمثلة قبطية الطابع، وكذلك على قوارير فخارية للشراب (قلل) جوانبها مضلعة تشبه أمثلة رومانية الطابع ولا تختلف عنها إلا فى العنق والحافة العليا من الفوهة، فالعنق طويلة ورأسية. ومن بين ماعثر عليه بقايا أباريق أو دوارق معظمها بيضاء تميل إلى الصفرة قد خرمت شبابيكها بين العنق والفوهة من الداخل بخروم عشوائية مستديرة، وقليل منها خرم بدقة على نحو يذكرنا بالأمثلة الفاطمية التى عثر عليها فى الفسطاط. ومن الأمثلة التى تم الكشف عنها شباك قلة مخرم بكتابات نسخية لعلها لفظ الجلالة تماثل نماذج أيوبية، كما كشف عن مسرجة من الفخار المزجج تشبه مسرجة كشف عنها فى الفسطاط يرجع تاريخها إلى القرن الخامس أو السادس للهجرة. كذلك عثر على قوارير للنفط تشبه الرمانة، صنعت من قطعة غليظة السمك من الفخار تزدان بعناصر زخرفية[٢٥١]. أما النوع الثانى وأعنى به الخزف المزجج فيتمثل فى قطع ينسب معظمها لقدور مزججة باللون الأصفر على أرضية حمراء أو مزججة

باللون الأخضر على أرضية حمراء أو زبدية اللون. وبعض القطع المكتشفة تشبه نماذج عدنية من حيث طريقة الصناعة واللون، وبعضها يشبه قطعاً عثر عليها فى الساحل الشرقى لإفريقيا ويرجع تاريخها إلى القرن الثامن الهجرى. وهناك قطع قليلة لخزف يشبه النوع المعروف بالاسجرافياتو المملوكى وأخرى أيوبية لا تعدو تقليداً للسيلادون الصينى. وهناك قطع عديدة لقدور مزججة لونها فيروزى أو أبيض على أرضية صفراء باهته استلهمها الخزافون من القدور الصينية أو السلجوقية المتأخرة(٢٥٢). أما الأوانى الخزفية المجلوبة من الشرق الأقصى فأكثر ماعثر عليه من السيلادون الذى يرجع تاريخه إلى أسرة مينج أو يوان، وتشبه قطعه بعض قطع عثر عليها فى الفسطاط ويرجع تاريخها إلى أسرة تنج لنج شوان، كما عثر على قطع من البورسلين البيضاء والزرقاء عليها زخارف زهرية، ويرجع تاريخها إلى القرنين الثامن والتاسع(٢٥٣).

وفيما يتعلق بالقطع الزجاجية، فإن موسم الحفر الأول سنة ١٩٧٨ أسفر عن كشف قطع كبيرة الحجم من الزجاج يرجع تاريخها إلى القرنين السابع والثامن للهجرة، معظمها زيتونى اللون يبدو أنها من صناعة الإسكندرية أو استجلب من سواحل الشام، وان كان من المرجح أن بعضها كان يصنع محلياً فى القصير، وتتعلق القطع التى عثر عليها بدوارق أو قدور

مقعرة[٢٥٤].

ثانياً : قطع النسيج:

عثر فى موسم الحفر الأول على نحو ٣٠٠ قطعة من النسيج المزين بالزخارف معظمها يرجع تاريخه إلى العصر المملوكى، والعدد الأكبر منها من القطن وبعضها من الصوف وقليل منها من الكتان. ومن أمثلة القطع الصوفية واحدة تزدان بأشرطة زرقاء عديدة، أما القطع القطنية فتزدان بزخارف من الشرائط، وعثر من بين ما اكتشف من القطع المنسوجة على قطعة من الكتان تزدان بعصائب سوداء وحمراء، وقطعة قطنية طبعت عليها زخارف مختمة لعلها لثوب صنع نسيجه فى الهند، وتشبه قطعة محفوظة بمتحف بروكلين Brooklyn من النوع المعروف بنسيج الفسطاط يرجع تاريخها إلى مابين القرنين السادس والسابع للهجرة، وقطعة أخرى من الكتان ٧ سم x ٣ سم موشاة بخيوط الحرير لعلها كانت طرازاً فى ثوب نسجت فيه كتابة بالخط النسخى المملوكى يخلو من التنقيط، قرأها استيل وويلان Whelan ,Estelle على أنها " المحلق فلماه[٢٥٥] واعتقد أن القراءة غير صحيحة، ومن الممكن قراءتها (.... الجمال وتأمل) لعلها كانت عبارة " وتأمل الجمال" متكررة فى طرف الثوب. والكتابة منسوجة فى لحمة الثوب وسداه على مهاد من التوريق يمثل مراوح نخيلية محورة عن

الطبيعة بين فروع نباتية متموجة. ونستدل من النوع الجيد لقطعة النسيج والحروف الكتابية الجميلة واستخدام خيوط الحرير بمختلف الألوان على أن هذه القطعة طرزت لاستخدام شخص من الطبقة الوسطى ولم تنسج لشخص يعمل فى شحن السفن وتفريغها(٢٥٦). ويمكن تفسير عدم تداخل خيوط الذهب أعنى عدم توشيتها بخيوط الذهب بأنها لم تكن مخصصة لشخصية مرموقة فى المجتمع القصيرى، ومن المعروف أن الصعيد الأعلى، لا سيما مدينة أسوان، كان مشهوراً بصناعة المنسوجات الكتانية، وزراعة النيلة وهى المادة الزرقاء التى كانت تستخدم فى صباغة النسيج، وقد زودنا ابن حوقل وياقوت بعبارات تؤكد اختصاص أسوان بصناعة الكتان، كما اشتهرت أسيوط بثيابها الكتانية(٢٥٧). ومن الجدير بالذكر أن هذه القطعة المطرزة من النسيج ليست سوى واحدة من عدد كبير من قطع النسيج الكتانية عثر عليها فى الحفائر يبلغ عددها نحو مائتى قطعة، وكثرة هذه القطع يؤكد قيام دور طراز لصناعة المنسوجات فى مصر العليا فى العصر الإسلامى(٢٥٨).

ثالثاً : التحف الخشبية:

تم الكشف عن قطعتين من قصعتين خشبيتين مدهونتين: احداهما قطعة من قصعة، والثانية غطاء لقصعة أقل حجماً يبلغ قطره ١٠ سم، ويتميز بأن سطح الغطاء الداخلى وحافته مدهون بطبقة حمراء اللون، بينما دهن السطح الخارجى بطبقة من الدهان البنى القاتم، ورسمت عليه دوائر وأفرع نباتية أقرب ماتكون إلى فروع الكرم، وتنتهى هذه الفروع بزهرة زنبق طليت باللون الأسود(٢٥٩).

أما القطعة المتبقية من إحدى القصاع فتزدان بنفس الأسلوب، ويبلغ قطرها ١٥ سم، وتتميز بأن باطنها مدهون بطبقة خفيفة بدهان أحمر اللون، أما الحافة العليا فيدور بها شريط زخرفى تمتد فيه أنصاف مراوح نخيلية معتدلة ومقلوبة على التناوب، وقد حزت بحيث ظهرت البطانة البيضاء التى تمثل اللون الأصلى للخشب، ويدور بالشريط حول القصعة نص كتابى نطالع فيه (واليمن ١) لعلها (الإقبال واليمن) متكررة. ويلى ذلك زخرفة تتألف من خطوط سوداء اللون قوامها لفائف لولبية وخطوط متقاطعة وتوريقات بسيطة تتفرع من اللفائف، من نفس طابع الزخارف التى يزدان بها الغطاء. ولعل القصعة المذكورة لصغر حجمها كانت علبة لحفظ بعض أدوات الزينة أو

الحلى[٢٦٠] وقد عثر على قصعتين خشبيتين احداهما من الفسطاط يرجع تاريخها إلى فترة متأخرة بعض الشئ عن قصعة القصير، والثانية من ايران يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى أو الثامن، وتشبه زخارف قصعة القصير زخارف قطع النسيج التى تزدان بأنصاف المراوح النخيلية[٢٦١]. وأعتقد أن القصاع الخشبية كانت تصنع فى أحد المراكز الصناعية بالصعيد الأعلى ربما فى أسيوط أو فى اخميم أو فى قوص على مقربة من إحدى دور الطراز المنتجة للمنسوجات الكتانية.

رابعاً : الحبال والأقراق والمكاتل والقفف

أسفر البحث الأثرى فى موقع القصير عن كشف قطع من حبال مجدولة من خيوط القنب، بعضها غليظة متعددة الضفائر، وبعضها بسيطة رفيعة، ومعظم هذه القطع التى تم الكشف عنها قصيرة الطول ومتآكلة، وكانوا يستخدمون هذه الحبال المجدولة فى نسج أبراش لتغطية الأرضيات. كما عثر على حذاء من النسيج وآخر من الجلد، وقطعة من حصير مصنوع من الخوص ربما كان يصلح للتسقيف أو لفرشه على الأرضيات أو لصناعة القفف، وبعضها لعمل أجفان مسطحة لوضع الخبز أو ما يسمى بالمشنات المستديرة[٢٦٢].

خامساً : الآثار المعدنية:

عثر فى موسم الحفر الأول سنة ١٩٧٨ على بعض قطع معدنية إسلامية من البرونز أو الحديد وبعضها من الفضة، منها إبر ضخمة ربما لخياطة الجلبات، ومسامير حديدية، وخواتم، وشصوص لصيد الأسماك، وتشير القطع التى تم الكشف عنها إلى جوانب من النشاط الحرفى الذى كان يقوم به أهل القصير، كما عثر على ملعقة ومفاتيح لأبواب، ومزلاج[٢٦٣].

كذلك أسفر التنقيب الأثرى فى الموقع عن كشف تسع عملات:

ستة منها من العصر الأيوبى يتراوح تاريخها مابين الربع الأخير من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجرى سكت فى دار السكة بالقاهرة، وعملة واحدة بيزنطية من عصر الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين. أما العملات الثلاثة الباقية فمنها عملتان من عصر المماليك وعملة حديثة من القرن التاسع عشر.

وتشتمل العملات الإسلامية على درهمين من الفضة وستة من النحاس نوزعها على النحو التالى:

١- درهم أيوبى نقرأ بوضوح على الظهر (يو ٠٠٠ بن ١٠٠٠) وهو اسم يوسف بن أيوب وفى الوجه (٠٠٠ بو العبا ٠٠٠) أى أبو العباس وهو كنية الخليفة العباسى الناصر. ونقرأ على الحافة تاريخ الضرب الذى يصعب

تحديده على وجه الدقة، ولكن من الممكن قراءته على صورتين: واحدة ٥٧٦ والأخرى ٥٩٠.

٢- درهم أيوبى يحمل اسم الصالح ايوب (٦٣٧-٦٤٧هـ) واسم المستعصم بالله الخليفه العباسى (٦٤٠-٦٥٦هـ)، ولم نوفق إلى قراءة اسم دار الضرب ولا التاريخ الذى ضربت فيه العملة، ومع ذلك فإن خصائص النقش تدعونا إلى الاعتقاد بأن الدرهم ضرب فى حماة فى سنة ٦٤٥هـ.

٣- فلس أيوبى يحمل اسم الكامل محمد (٦١٥-٦٣٥هـ) واسم الخليفة العباسى الظاهر (٦٢٢-٦٢٣هـ).

٤- فلس أيوبى يحمل اسماً يمكن قراءته على أنه المستنصر، ويقصد به المستنصر بالله العباسى (٦٢٣-٦٤٠هـ).

٥- فلس مملوكى من الصعب قراءة الأسم والتاريخ، ولكن من الممكن ارجاع تاريخ الضرب إلى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى.

٦- فلس مملوكى من عهد قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ).

٧- ١٠ قروش عثمانية ضربت فى مصر وتحمل اسم السلطان عبدالعزيز (١٢٧٧-١٢٩٣هـ)(٢٦٤).

سادساً : مشغولات من مواد مختلفة:

عثر على سدادة من الجص، وأساور زجاجية، وصنج زجاجية منها

صنجتان من عصر المماليك، من المعتقد أنها جلبت من اليمن، كما عثر على قطعة صغيرة من العاج، وعلى أمشاط وقدور من الحجر ربما جُلبت من عُمان(٢٦٥).

سابعاً : الوثائق المكتوبة:

تم العثور على نحو مائتي قطعة من الورق عليها كتابة بالخط العربي النسخي والثلث المملوكي وتتدرج الخطوط النسخية من كتابات غير منقوطة إلى أخرى جيدة ودقيقة، ومن الوثائق المكتشفة رسالة نقرأ عليها النص التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد إلى عيسى ابن حسين الـ..... ومه أكرمه الله من أخيكم... وجب بدا اعلامكم أكرمكم الله). ومنها ورقة كتبت بخط نسخي معقد تاريخ سنة ٦١٥ ولفظ تاجر. كما عثر على كتابات عربية سجلت على مواد مختلفة أكثرها قشر بيض النعام، وبعضها على الخشب والعظم والبعض نسج في لحمة الثوب وسداه. وهناك كتابات منقوشة على الطرف الشرقي من صخرة ناتئة في الطريق المؤدى إلى القصير الجديدة فيما وراء الفتحة المؤدية إلى بير البيضا، حيث يقع ضريح الشيخ عبدالعال من بينها نقش بخط واضح نصه (حضر العبد الفقير الى الله تعالى يوسف بن حاتم الشطى رده الله الى أهله غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين بتاريخ شهر جماد الآخر

سنة خمس وخمسين وسبعمائة) وقرأها ميخاييل بيتس ودونالد وتكومب خطئا (عفر الله به وبوالديه وبجميع المسلمين)[٢٦٦].

(٦)

أهمية البحر الأحمر كمعبر مائى رئيسى للتجارة الشرقية
وأثر ذلك على اهتمام السلطات الحاكمة
فى مصر بتوفير الأمن فيه

رأينا كيف كان البحر الأحمر منذ أقدم العصور الطريق البحرى الرئيسى، والشريان الحيوى الهام الذى يربط التجارة الشرقية بالغرب الأوربى عبر مصر، وكيف تناوب مع خليج فارس الريادة فى هذا المجال وفقاً للظروف السياسية التى كانت تمر بها منطقة الشرق الأدنى عبر حقب التاريخ، وكيف تبوأ مكان الصدارة منذ أن قامت الدولة الفاطمية فى مصر بعد أن مرت الخلافة العباسية بظروف صعبة فى عصريها الثانى والثالث، وبعد أن سيطرت قوى الصليبيين على المناطق الجنوبية من الأردن وفلسطين، وقطعت الطريق بذلك على مسالك التجارة وعلى درب الحج عبر سيناء، وعلى هذا النحو استعاد البحر الأحمر مكانته القديمة وأهميته كمنفذ رئيسى ومعبر هام للتجارة الشرقية، مما دفع السلطات الفاطمية إلى العمل على تأمين الملاحة فيه من تعرض قراصنة البحر للسفن التجارية وحماية القوافل التجارية التى كانت تعبر وديان الصحراء الشرقية من مخاطر

التعرض لغارات البدو.

وأدت السياسة الحكيمة التى اصطنعتها الدولة الفاطمية تجاه التجار الشرقيين والغربيين الى ازدياد الأهمية التجارة لثغر عيذاب ومدينة قوص وتسابق هؤلاء التجار إلى التعامل مع الأسواق التجارية بمصر، وترتب على هذا النشاط المكثف فى الحركة التجارية ازدهار عمرانى واسع النطاق تألقت بفضله مواضع وبلدان كانت محدودة الأهمية ولكنها تحولت إلى مدن تجارية وفرضات للحط والإقلاع ومراكز رئيسية لتجارة مصر فى البحر الأحمر وأعنى بهذه المدن عيذاب والقصير على الساحل الغربى من البحر الأحمر وقوص وقفط وأسوان على ضفاف النيل. وساعد على نشاط الحركة التجارية فى البحر الأحمر فى العصر الفاطمى دخول أبى كامل على بن محمد بن على الصليحى فى طاعة الدولة الفاطمية ودعائه للخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى اليمن ومكة فى سنة ٤٥٥ هـ (٢٦٧). ولم تلبث المصالح التجارية المشتركة بين مصر الفاطمية واليمن الصليحية أن تطورت بمضى الزمن، مما أدى الى ارتباط البلدين بروابط ودية وثيقة، تتمثل فى الهدية القيمة التى بعث بها على بن محمد الصليحى إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٥٤ هـ ومنها كميات كبيرة من المسك والعنبر والكافور والعود الهندى(٢٦٨). غير أن الدولة الفاطمية لم تلبث أن تعرضت فى أواخر

أيامها لبعض الصعاب الاقتصادية بسبب اضطراب الأحوال فى مصر والصراع بين الوزيرين شاور بن مجير السعدى وأبى الأشبال ضرغام مما ترتب عليه قيام أزمة نقدية فى مصر نتجت عن المقاطعة الأوربية لتجارة المرور عبر الأراضى المصرية، ونضوب موارد التبر من مناجم الذهب بالعلاقى. ولكن صلاح الدين نجح فى بداية توليه للسلطنه فى التغلب على تلك الأزمة ووفق فى تنظيم موارد بلاده واصلاح النقد بفضل عنايته بتجارة البحر الأحمر التى زادت أهميتها فى هذا العصر[٢٦٩]، بعد الحملة التى قادها توارنشاه من عيذاب فى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) إلى اليمن وحملة الملك المسعود بن الكامل محمد إليها فى ١٧ رمضان سنة ٦١٢ هـ(١٢١٥م) والحملة الثالثة التى قادها سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن فى سنة ٥٧٨ هـ للقضاء على الفتن، وقد مكنت هذه الحملات الأيوبيين من السيطرة على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وتجارته[٢٧٠]، وفى نفس الوقت حرص صلاح الدين على تحصين مدخله الشمالى وذلك بالسيطرة على قلعة أيلة[٢٧١] التى كان الصليبيون قد اتخذوها قاعدة لاعتداءاتهم وتم استيلاؤه عليها فى سنة ٥٦٦ هـ، كما بسط سلطانه على الحجاز لتأمين سلامة الحجاج الذين يركبون البحر من عيذاب والقصير. وكان لذلك كله أعظم الأثر فى سيطرته الكاملة على البحر الأحمر وتحكمه فى مدخله ومخرجه، بحيث

أصبح هذا البحر نتيجة لذلك بحراً اسلامياً مغلقاً، ونتج عن ذلك ازدهار كبير فى تجارة الكارم وتسابق تجار الكارم إلى مراكز مصر التجارية فى عيذاب والقصير وقوص وقفط والقاهرة والاسكندرية مستظلين فى ذلك بحماية الدولة لهم ورعايتها لهم ولتجارتهم وباستقرار لا حدود له رغم الصراع العسكرى المتواصل بين القوى الإسلامية فى مصر والشام وقوى الصليبيين. ولتأمين الطريق البرى بين قوص وعيذاب، حرص صلاح الدين على التغلب على الأخطار التى كانت تتعرض لها التجارة الشرقية أثناء اجتيازها برية عيذاب سواء فى وادى العلاقى أو برية عيذاب أو فى وادى النيل. ولهذا السبب استهدف القضاء على امارة بنى الكنز من ربيعة(٢٧٢).

وهكذا يمكننا القول بأن البحر الأحمر ووادى النيل استعادا بعد قرون طويلة من الخمول وتوقف دورهما القديم مكانتهما السامية(٢٧٣)، وازدهرت قوص فى العصر الأيوبى بعد أسوان فى العصر الفاطمى، عمرانياً واداريا وعلمياً، مما ترتب عليه ازدياد نشاط الحركة التجارية فى المدينة(٢٧٤). كذلك انتعشت عدن، وأصبحت بحق من أهم مراكز التجارة الكارمية فى العصر الأيوبى بحيث عرفت بأنها دهليز الصين. وتشهد وثائق الجنيزة بهذا النشاط الكبير فى الحركة التجارية عبر البحر الأحمر، فبعض هذه الوثائق رسائل كتبها أفراد لا ينتمون إلى تجار الكارم يخبرون فيها ذويهم بأنهم وصلوا

بسلام كالرسالة التى أرسلها أبو ذكرى كوهين، وكيل التجار اليهود بالقاهرة فى سنة ٥٣٥هـ الى أحد أصحابه بعيذاب يخبره فيها بأن " جميع من خرج من أصحابنا فى الكارم بأتم السلام " كما جاء فى رسالة كتبها فى الثلاثينات من القرن السادس الهجرى التاجر العدنى يوسف بن ابراهيم الى شخص غير معروف، يبدى فيها ألمه العميق لغرق صاحبه أبى عمران بن فقيع فى مياه البحر الأحمر على سفينته، ويرجو فى ختام رسالته أن يكون بقية التجار قد وصلوا سالمين إلى عيذاب[٢٧٥].

وهناك أمثلة عديدة لهذه الرسائل أشار اليها الدكتور حسنين ربيع فى دراسته القيمة عن البحر الأحمر فى العصر الأيوبى[٢٧٦]، تعبر كلها عن أهمية عيذاب أكبر مرفأ تجارى للتجارة الشرقية عبر البحر الأحمر وفى بعض هذه الوثائق مايشير إلى أن أصحابها بعثوا إلى ذويهم أو بعض أصحابهم هدايا مع الكارم أو إلى خروج بعض تجار اليهود فى صحبة طائفة من التجار الكارمية المسلمين[٢٧٧]. وفى وثيقة أخرى يبعث كاتبها تحياته " الى الحاج اسماعيل والحاج محمد وأهل بيته"، ويذكر أنه لم يلتق بهم لا فى طريق الرحلة ولا فى ميناء عيذاب[٢٧٨].

وعلى الرغم من اشتغال صلاح الدين وخلفائه من سلاطين الدولة الأيوبية بمحاربة القوى الصليبية فى الشام، وعلى الرغم من المحاولة الفاشلة

التى قام بها البرنس ارناط Renaud de chatillon صاحب الكرك للسيطرة على طريق التجارة البحرية عبر البحر الأحمر[٢٧٩] ومن استقلال بنى رسول باليمن فى سنة ٦٢٨هـ بعد وفاة المسعود بن السلطان الكامل محمد فى سنة ٦٢٦هـ[٢٨٠]، على الرغم من كل ذلك فإن البحر الأحمر شهد فى العصر الأيوبى نشاطاً تجارياً واسع النطاق فاق ماسبقه من عهود.

وازداد نشاط تجار الكارم فى نقل السلع الشرقية من عدن إلى عيذاب التى أصبحت منذ العدوان الصليبى عليها موضع اهتمام سلاطين بنى أيوب، فزادت أهميتها كقاعدة بحرية تجارية، ومحطة رئيسية لتجار الهند واليمن والحبشة وعدوتهامة لعبور الحجاج إلى الأراضى المقدسة[٢٨١]، وأصبحت قوص مركز نشاطهم فى الصعيد. وإذا كان الأيوبيون قد حرصوا على بسط سيادتهم السياسية والاقتصادية على البحر الأحمر فإن سلاطين المماليك، لا سيما فى العصر المملوكى الأول، تابعوا نفس السياسة الأيوبية فى الاهتمام بشئون البحر الأحمر وانعاش الحركة التجارية فيه، وتخفيف الأعباء والمكوس المفروضة على الحجاج، وإذا كان صلاح الدين قد أمر بإلغاء ما كان يفرض فى عيذاب على الحجاج من مكوس[٢٨٢]، فإن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ألزم شريف مكة بالغائها[٢٨٣] لقاء ما كان يرسله إليه من غلال، كما صدر فى سنة ٧٦٦هـ مرسوم باسقاطها

خلا مكس الكارم ومكس الخيل ومكس تجار العراق، وعُوّض أمير مكة عن ذلك اقطاعاً بمصر، وحمل إليه مبلغ قدره أربعمائة ألف درهم فضة(٢٨٤).

وعلى الرغم من تحول طريق الحج منذ عام ٦٦٦ هـ إلى الطريق البرى إلى الحجاز عبر شبه جزيرة سيناء(٢٨٥)، فإن مدينة عيذاب ظلت عامرة، وميناء للحط والإقلاع واستمرت السلع الشرقية ترد إليها عبر البحر الأحمر وتنقل منها إلى قوص إلى أن أبطل ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ (١٣٥٨-١٣٥٩م) بسبب خراب الصعيد، وكثرة قطاع الطرق، فاتجه التجار إلى موانئ جدة والطور والسويس(٢٨٦). ومع ذلك فقد احتفظت عيذاب بعد ذلك التاريخ ببعض أهميتها، واختصت باستقبال الوفود الرسمية القادمة من اليمن.

وهكذا نتبين من خلال العرض السابق أن السلطات الحاكمة لمصر أدركت عبر مراحل طويلة من التاريخ الإسلامى أهمية البحر الأحمر بالنسبة للتجارة الشرقية، وحرصت على تنشيط هذه الحركة التجارية وانعاشها بشتى السبل والوسائل سواء بتخفيف أعباء المكوس المفروضة على التجار وعلى حجاج مصر والمغرب أو بتأمين الطرق التى كان يستخدمها هؤلاء براً وبحراً، ونستدل مما أورده المؤرخون العرب أن خلفاء الدولة الفاطمية وسلاطين بنى أيوب والمماليك صرفوا قسطاً كبيراً من

جهودهم لتحقيق ذلك، وأنهم حرصوا على توفير الأمن فى البحر الأحمر وفى البرية الممتدة من عيذاب الى قوص حماية للتجارة والحج ففى سنة ٥١٢ هـ عمد شريف مكة قاسم بن أبى هاشم إلى تهديد طريق التجارة البحرى وذلك باعتراض السفن التجارية فى البحر الأحمر، وقطع الطريق عليها ومهاجمة السفن الراسية بثغر عيذاب، ونهب جميع ما تحمله من سلع ومتاجر، كما سبق أن أسلفنا القول، وأدى ذلك إلى احجام التجار عن سلوك الطريق، كما توقف الحج لمدة ثلاث سنوات حتى سنة ٥١٥هـ (١١٢١/ ١١٢٢م) لتعود الأمور إلى سابق حالتها الطبيعية[٢٨٧]، فلما أرسل التجار يشكون إلى الوزير الأفضل شاهنشاه ما لاقوه من اعتداء قاسم بن أبى هاشم صاحب مكة عليهم، غضب غضباً شديداً وهدد بمهاجمة الحجاز بأسطول ضخم أوله عيذاب وآخره جدة، ولم يتردد بالفعل فى اصدار الأمر بصناعة خمس حراريق لتسير إلى الحجاز، وأثمر هذا التهديد فى حمل أمير مكة على رد البضائع والأموال التى نهبها إلى أصحابها[٢٨٨]. وبهذا التصرف السريع والإجراء الحاسم نجح الأفضل شاهنشاه فى استعادة ثقة التجار بقدرات مصر على حماية الملاحة فى البحر الأحمر وضمان الأمن لتجارة هذا البحر. وربما كان هذا العدوان الذى قام به شريف مكة حافزاً للفاطميين على تخصيص سفن من أسطولهم تقتصر مهمتها على تطهير

البحر الأحمر من سفن القراصنة التى كانت تترصد السفن التجارية أو تعتدى عليها[٢٨٩] كما أشرنا من قبل. وفى العصر الأيوبى أقدم صلاح الدين على انتزاع قلعة أيلة من الصليبيين فى سنة ٥٦٦هـ[٢٩٠]، وافتتح أخوه تورانشاه اليمن فى سنة ٥٦٩هـ وبسط نفوذه على الحجاز، وتمكن صلاح الدين بذلك من تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة اسلامية واحكام السيطرة المصرية عليه على النحو الذى أشرنا اليه، كما رأينا موقف العادل سيف الدين أبى بكر الحازم إزاء اعتداء البرنس أرناط على ثغر عيذاب، وتجرئه على اقتحام أراضى الحجاز فى محاولة فاشلة لغزو المدينة فى سنة ٥٧٨هـ. وقد سجل صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة العباسى عقب هذه الغزوة الغاشمة عزمه على اقرار السيطرة التجارية الإسلامية فى البحر الأحمر فى أيدى الكارمية، فقال ان انتصار الأسطول الصليبى " القاصد سواحل الحجاز واليمن " كان يستهدف منع طريق الحاج عن حجه، وأخذ تجار اليمن وكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز. كذلك حرصت السلطات المصرية منذ نهاية العصر الأيوبى وطوال عصر دولة المماليك على اقرار الأمن فى بلدان الصعيد الأعلى والطرق المؤدية إلى البحر تأمينا لسلامة التجار من ثورات العربان وحركات النوبيين مما كان يتسبب فى اضطراب الأمن ويدفع التجار إلى تجنب السفر إلى عيذاب، ففى سنة ٦٥١هـ ثار العربان " ببلاد

الصعيد وأرض بحرى، وقطعوا الطريق براً وبحراً، فامتنع التجار وغيرهم عن السفر، وقام الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين على بن الأمير الشريف فخر الدين اسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبى جميل الجعدى، وقال: نحن أصحاب البلاد ومنع الأجناد من تناول الخراج، وصرح هو وأصحابه بأنّا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج على البلاد، وأنفوا من خدمة الترك وقالوا: انما هم عبيد للخوارج. وكتبوا الى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه على القدوم إلى مصر". وأقبل العرب إلى الأمير حصن الدين ثعلب من أقاصى الصعيد، وأطراف البلاد، وحلفوا له، وعندئذ سير اليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار والأمير فارس الدين أقطاى المستعرب فى خمسة آلاف فارس، وتمكنوا من الايقاع بالعرب، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وولى الناجون الأدبار. وانتهى الأمر بالقبض على حصن الدين ثعلب، وحبس بثغر الاسكندرية(٢٩١).

وفى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢م) ثار عرب بلى وأقدموا على قتل عز الدين الهواش والى قوص بهدف التخلص من حكم المماليك(٢٩٢)، فسير اليهم السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الأمير عز الدين أفرم أمير جاندار، على رأس حملة، اوقعت بهم، وبددت شملهم. وفى سنة ٦٦٢هـ تقدم الكارمية

بشكوى فى حق صاحب سواكن وصاحب دهلك بسبب قيامهما بمصادرة أموال من يموت من التجار فى بلادهما، فبادر بيبرس بإيفاد رسول من قبله إليهما ينكر عليهما ذلك(٢٩٣)، ولكن هذا الإجراء وحده لم يكن كافياً لردعهما، ولهذا بادر بارسال حملة إلى سواكن فى سنة ٦٦٤هـ(١٢٦٥م) بقيادة والى قوص، كان من نتائجها دخول سواكن فى طاعة مصر، واقامة حامية مملوكية بها، والزامها بدفع الزكاة(٢٩٤)، وبذلك فقدت مملكة مقرة منفذها على البحر مماتسبب فى الاضرار بمصالحها الاقتصادية وكان ذلك دافعاً لداود ملك النوبة على مهاجمة ثغر عيذاب وأسوان فى سنة ٦٧١هـ(١٢٧٢م)(٢٩٥). فقد استغل داود فرصة اشتغال السلطان بيبرس بمواجهة التتار والصليبيين والأرمن، وأغار فى تلك السنة على عيذاب، وأقدم على قتل واليها وقاضيها، وقفل عائداً الى دنقلة مثقلاً بالغنائم والأسرى، ومبالغة منه فى السخرية من حكام مصر أسس بدنقلة بليدة سماها عيذاب، سخر فى بنائها أسرى المسلمين، واستثار بهذا العدوان غضب السلطان بيبرس، فجرد إليه فى نفس العام حملة تأديبية وجهها إلى بلاد النوبة، تولى قيادتها والى قوص علاء الدين أيدغرى الخازندار رداً على غارة النوبيين. ونجح والى قوص فى الاستيلاء على دنقلة وتمكن من قتل وأسر عدد كبير من أهلها على رأسهم صاحب الجبل(٢٩٦)، ثم أمر السلطان بتوسيطهم. وكان داود

ملك النوبة قد استبد ببلاد النوبة وعاث فساداً فى الأراضى المصرية، وشق عصا الطاعة على السلطان المملوكى، كما دفع ابن اخته ويدعى مشكد أو سكنده إلى الفرار إلى مصر والتظلم منه، وعندئذ وجد بيبرس فى لجوء مشكد إليه فرصة مواتيه للنيل من داود والقضاء عليه، فأعد جيشاً كثيفاً من العسكر وأجناد الولايات والعربان أسند قيادته إلى الأمير شمس الدين أقنسقر الفارقانى الاستادار والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، وزود الجيش بالزراقين والرماة ورجال الحراريق والزردخاناه، وتم خروج الجيش من القاهرة فى أول شعبان من سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٥م). وتجاوز الجيش المملوكى فى تقدمه مدينة أسوان واشتبك مع قوات الملك داود ومن معه من السودان، فقاتلوا المماليك على النجب وبأيديهم الحراب، وانتهت المعركة بهزيمة داود ملك النوبة[٢٩٧]، وتوغل المماليك فى أرض النوبة، وفر داود فى البحر والعسكر فى أثره ثلاثة أيام يقتلون ويأسرون، حتى أذعن القوم، ووقع فى أسر المصريين أم الملك داود وأخته وأخ له يدعى شنكو وبعد أن تغلب المماليك على قوات داود، أقر أقسنقر سكنده ملكا على النوبة، وأفرج عمن كان بأيدى النوبيين من أسرى أسوان وعيذاب من المسلمين، ثم أمر بتخريب كنيسة سوس ونهب مافيها من صلبان ذهبية وفضية، وكان داود قد عمرها على أكتاف أسرى عيذاب وأسوان[٢٩٨]، وكانت لهذه الحملة المملوكية أعظم

الأثر فى انهيار مملكة المقرة النوبية[٢٩٩]. ومن الجدير بالذكر أن اهتمام سلاطين المماليك البحرية بالتجارة الشرقية عبر البحر بلغ ذروته فى عهد السلطان الملك المنصور قلاوون، الذى ارتبط بعلاقات طيبة وثيقة مع حكام الأقطار المطلة على هذا البحر، فبعث إلى يوسف بن عمر ملك اليمن يهاديه ويوادعه ويدعوه إلى التعاون والمودة، بخلاف ما كان يحدث فى عهد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الذى كان يتعالى على ملوك اليمن، وقد أبدى قلاوون الكثير من مظاهر الود وصروب الحفاوة فى استقبال رسل ملك اليمن الذين قدموا الى مصر بهداياهم النفيسة[٣٠٠]. وواصل المنصور قلاوون اهتمامه بتأمين الطرق التى كان يسلكها التجار الوافدين إلى عيذاب من خطر التعرض لاعتداءات العرب أو النوبيين غير أن الخطر الحقيقى الذى كان يتهدد التجار كان يكمن فى الاشتباكات التى كثيراً ماتنشب بين العرب أنفسهم الأمر الذى كان يعرض التجارة المارة بهذه النواحى للنهب والسلب: ففى سنة ٦٨٠هـ (١٢٨٠م) دارت فى صحراء عيذاب وقعة ضارية بين عرب جهينة اليمنية وعرب رفاعة القيسية، انتهت بسقوط عديد من القتلى من كلا الجانبين، ولجوء الكثير من أفراد القبيلتين إلى صاحب سواكن[٣٠١]، فكتب السلطان قلاوون إلى الشريف علم الدين صاحب سواكن يطلب منه أن يوفق بينهم، " ولا يعين طائفة على أخرى خوفاً على فساد الطريق[٣٠٢]،

وفـى شهر ربيع الآخر من سنة ٦٨٧ هـ(مايو ١٢٨٨م) أصدر المنصور سيف الدين قلاوون مرسوماً أو صورة أمان من انشاء محيى الدين بن عبدالظاهر سيره مع التجار الذين يصلون إلى مصر من بلاد الهند والصين وفارس والعراق والحجاز واليمن وبلاد الروم(٢٠٣)، نطالع مما ورد فيه مايلى:

" رسم – أعلى الله الأمر العالى – لا زال عدله يحل الرعايا فى الأمن فى حصن حصين، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة من أهل المشارق والمغارب، فلا أحد إلا وهو من المخلصين، ويهيئ برحابها للمعتفين جنة عدن من أى أبوابها شاء الناس دخولاً: من العراق من العجم من الروم من الحجاز من الهند من الصين – أنه من أراد من الصدور الأجلاء الأكابر التجار وأرباب التكسب، وأهل التسبب، من أهل هذه الأقاليم التى عددت والتى لم تعدد، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد – النقلة إلى بلادنا الفسيحة إرجاؤها، الظليلة أفياؤها وأفناؤها، فليعزم عزم من قدّر الله له فى ذلك الخير والخيرة، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيرة.... فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ الأهبة فى الارتحال اليها، والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال أكثر، ويرى احساناً يقابل فى الوفاء بهذه العهود ما لأكثر ويحل منها فى بلدة طيبة ورب غفور، وفى نعمة جزاؤها الشكر وهل يجازى إلا

الشكور، وفي سلامة في النفس والمال، وسعادة تجلّي الأحوال، وتمول الآمال، ولهم منا كل مايؤثرونه: من معدلة تجيب داعيها، وتحمد عيشهم دواعيها، وتبقي أموالهم على مخلّفيهم، وتستخلصهم لأن يكونوا متفيئين في ظلالها وتصطفيهم، ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف تحضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق، ولا يكلّف أمراً يَشُق، فقد أبقى لهم العدل ما شاق، ورفع عنهم ماشق، ومن أحضر معه منهم مماليك وجواري فله في قيمتهم مايزيد على مايريد، والمسامحة بما يتعوضه بثمنهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب فكيف من البعيد: لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقاً على الجود، فليستكثر من يقدر على جلبهم، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم...(٢٠٤).

وتابع الناصر محمد بن قلاوون سياسة أبيه في احاطة التجارة الشرقية الواردة إلى مصر عبر عيذاب – قوص – القاهرة برعايته، وتأمين الطريق التي تسلكها من مخاطر التعرض لهجوم قطاع الطرق من العربان والبجة، والدليل على ذلك أنه عندما هاجم العرب الضاربين في برية عيذاب رسل اليمن القادمين إلى مصر، يحملون هدية ملك اليمن إلى الناصر محمد سنة ٧١٦هـ(١٣١٦م)، لم يتردد السلطان الناصر محمد، تأمينا لطريق

القوافل التجارية فى برية عيذاب، وحرصاً على سلامة تجارة الكارم، فى تجريد حملتين متتاليتين (٣٠٥) لتأديب العربان فى البرية المذكورة، وتطهيرها من النهابة وقطاع الطرق منعاً لاعتداءاتهم المتكررة وترصدهم للتجار المسافرين عبر البرية إلى قوص، فقد حدث أن قدم فى هذه السنة رسولاً صاحب اليمن وهما بدر الدين بن أبى المنجا، والطواشى جمال الدين فيروز إلى عيذاب بهدية صاحب اليمن إلى السلطان، فخرج عليهما عرب صحراء عيذاب واستولوا على الهدية، فكان ذلك العدوان سبباً فى صدور الأمر السلطانى بتجريد حملة بقيادة الأمراء: علاء الدين مغلطاى وسيف الدين ساطى السلاحدار، وصارم الدين أزبك الجرمكى، وعز الدين أيدمر الدوادار، وعلاء الدين على بن قراسنقر وعلم الدين سنجر الدنيرى، فى قوة من الأجناد ومقدمى الحلقة(٣٠٦)، عدتها خمسمائة من الفرسان، وذلك فى العشرين من شهر شوال ٧١٦هـ وجهتها دنقلة. فسارت القوة المملوكية من قوص، واجتازت صحراء عيذاب فى المحرم سنة ٧١٧هـ، وتقدمت من عيذاب إلى سواكن، حيث اشتبكت مع طائفة من السودان يقال لها حى الهلبكسة، فى نحو الألفى راكب على الهجن بحراب ومزاريق وعدد كبير من المشاه عرايا الأبدان، فدارت الدائرة على تلك الطائفة وقتل منهم عدد كبير، وأتاح هذا الانتصار الذى أحرزه المماليك لهم الفرصة فى التوغل داخل

البلاد، فوصلت القوة المملوكية إلى ناحية الأبواب ومن هناك تقدمت إلى دنقلة حيث قامت ببعض الاجراءات التأديبية، ثم عادت بعد ذلك إلى القاهرة بعد ثمانية أشهر(٣٠٧).

واستمر العرب يعترضون طريق التجار والوافدين إلى عيذاب أو السالكين لبريتها، ففى سنة ٧٢٠هـ(١٣٢٠م) عاث العرب فساداً فى ثغر عيذاب وأقدموا على قتل الشاد المقيم بها مما دفع السلطان إلى تجريد حملة بقيادة الأمير آقوش المنصورى ومشاركة كل من الأمراء محمد بن الشمسى، وعلى بن قراسنقر، وطقصباى الحسامى وبيبرس الكريمى، وآقوش ألعتريس، لإقرار الأوضاع فى عيذاب، كما أنعم على آقوش المنصورى بإمرة طبلخاناة، وأقطعه ثغر أسوان على أن يقيم بعيذاب(٣٠٨).

ويتبين مما سبق ذكره أن العرب كانوا أكثر خطورة على الأمن فى برية عيذاب من النوبة والبجة، واستمرت عيذاب رغم كل الاجراءات التى قام بها الناصر محمد لتأمين التجارة الشرقية عبرها مسرحاً للمعارك، وقد روى ابن بطوطة كيف كان الصراع على أشده فى عيذاب بين الحدارب ومماليك الوالى، مما جعله يحجم عن الجواز منها إلى الأراضى المقدسة على النحو الذى ذكرناه.

(٧)

اضمحلال عيذاب ودثورها

ظل طريق قوص – عيذاب الطريق الأمثل الذى كانت تسلكه الوفود السياسية الرسمية القادمة من اليمن أو العائدة إليها بالاضافة إلى القوافل التجارية التى تنقل التوابل والسلع الشرقية: ففى ٥ من شوال ٦٨٠هـ (١٢٨١م) سافر الأمير ناصر الدين محمد بن المحسنى الجزرى الحاجب والقاضى شرف الدين ابراهيم بن فرج كاتب الدرج إلى اليمن من جهة عيذاب سفيرين من قبل السلطان[٣٠٩]، وفى مستهل ربيع الآخر سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) وصل إلى عيذاب يوسف بن عبدالرحمن شريفى رسولاً من قبل نجاشى الحبشة الملك أمحراً، ولكنه توفى بعيذاب[٣١٠]، كما وصل إلى عيذاب فى رمضان سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) رسل ملك الأبواب المسمى أدر وقد حملوا من بين هداياهم إلى السلطان فيلا وزرافة وكان بصحبتهم الأمير علم الدين سنجر المعظمى الذى كان قد أوفده السلطان رسولاً إلى ملك الأبواب[٣١١]. وفي سنة ٧١٦ هـ قدم رسولا صاحب اليمن وهما بدر الدين حسن بن أبى المنجا والطواشى جمال الدين فيروز إلى عيذاب يحملان هدية نفيسة أرسلها صاحب اليمن إلى السلطان، فخرج عليهما عرب برية

عيذاب واستولوا على الهدية وما كان مع التجار السالكين لهذا الطريق من سلع، وقد تحدثنا عن هذه السفارة فى سياق حديثنا عن جهود الناصر محمد فى تأمين برية عيذاب. وفى ٩ شعبان سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١م) خلع السلطان صلاح الدين صالح بن الناصر محمد على الملك المجاهد على بن رسول صاحب اليمن، وكان سجيناً بالكرك ثم أفرج عنه، ورسم له بالعودة إلى بلاده من جهة عيذاب[٣١٢] وفى شهر المحرم سنة ٧٥٤ هـ وصل الخبر إلى متولى قوص بقدوم رسل الملك المجاهد على بن المؤيد داود صاحب اليمن ومعهم ولده الملك الناصر (وكان صبياً يبلغ من العمر ١١ نسة) الى عيذاب بهدية، فتوجه الأمير آقجبا الحموى لملاقاتهم وصحبته الإقامات من الإنزال والعلوفات والطبائخ[٣١٣]، وأنفق على الرسل منذ قاموا إلى عيذاب إلى أن وصلا إلى الميدان بالقلعة نحو مائتى ألف درهم[٣١٤].

وفى نفس الوقت الذى كانت عيذاب تمارس فيه دورها كميناء رئيسية لتلقى الوفود والسفراء، كانت القصير تزاول دورها كميناء تجارية لتفريغ السلع الشرقية، ويذكر القلقشندى أنه كان يصل إلى القصير بعض المراكب التجارية لقربها من قوص وبعد عيذاب عنها، ولكنه يؤكد أنها لم تبلغ فى كثرة الواصل إليها حد عيذاب[٣١٥]. ويفهم من رواية القلقشندى أن المیناوين كانا يعملان فى آن واحد.

وفى هذه الأثناء ظهر ثغر الطور، وبالتحديد منذ سنة .. (١٣٧٨/١٣٧٩م)، وبنشاط الحركة التجارية فى الطور أخذت عيذاب .. سريعاً فى تدهور محتوم نحو السقوط ومع ذلك فقد ظل طريق عيـ قوص يحتفظ فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن والثلث الأول تقر.. من القرن التاسع ببعض الحيوية إلى أن أمر السلطان الأشرف بر.. بتخريب عيذاب فى أعقاب حملة بحرية سيرها إليها فى حدود سنة .. (١٤٢٦م) أسفرت عن حرق مينائها وتشريد أهلها لتنفرد جدة بتجارة التوابل عبر البحر الأحمر[٣١٦]، كما هوجمت سواكن فى سنة ٨٤٣هـ لنفس الغرض. ولكن الأستاذ جارسان يشك فى صحة هذه الرواية القائلة بأنها دمرت على يدى برسباى، ويستند فى شكوكه على أن المصادر العربية اللاحقة لتاريخ سنة ٨٣٠هـ ككتاب السلوك، وكتاب الخطط للمقريزى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى والضوء اللامع للسخاوى وشذرات الذهب لابن العماد وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهرى وغيرها، لم تشر لا من قريب ولا من بعيد لهذه الحملة المزعومة. ويعتقد أن عيذاب هجرت منذ عام ٧٦٠هـ كما ذكر المقريزى فى الخطط[٣١٧]، وأنها لم تتعرض لأى تخريب أو تدمير. ويرجع السبب فى هجرها فى رواية المقريزى إلى ثورات القبائل العربية فى الصعيد الأعلى، واشتباكاتها التى لم تنقطع مما أدى إلى

إفساد الطريق، بحيث أصبح غير مأمون[٢١٨]، ثم يتساءل عن السبب فى تحوّل التجارة من عيذاب الى القصير أولاً، ثم الى الطور بعد ذلك، وفى ازدهار ثغر الطور، فيرجع ذلك إلى جشع سلاطين المماليك وامرائهم، وإلى رغبة هؤلاء فى التحصل على أكبر قدر ممكن من المال للتوصل إلى الوظائف العليا فى هذه الفترة المتأخرة من عصر دولة المماليك البحرية عن طريق البذل والرشوة[٢١٩]، ويرد على تساؤله بأنه ربما يكون أمراء المماليك قد لجئوا الى اصطناع العسف والقهر فى تحصيل المكوس بسبب خواء خزانة الدولة أو بسبب تفشى الأوبئة كما حدث فى سنة ٧٤٩ هـ عندما انتشر الوباء الأعظم، وكذلك بسبب المجاعات التى حدثت بعد طاعون سنة ٧٧٨هـ مما ترتب عليه انخفاض ميزانية الدولة والرغبة فى التماس موارد جديدة، وكان على تجارة الكارم أمام ذلك أن تسلك الطرق الأقصر والأسلم التى تكفل لها الأمان مع أقل التكاليف[٢٢٠].

وأيا ما كان الامر فإن ثغر عيذاب أهمل منذ بداية عصر دولة المماليك الثانية فى الوقت الذى تألق فيه نجم مينائى جدة[٢٢١] والطور اللذين تمكنا من انتزاع مكان الصدارة بين ثغور البحر الأحمر التجارية، مما أدى إلى دثور عيذاب وخرابها. واقتصر دور عيذاب منذ النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى والربع الأول من القرن التاسع على خدمة المصالح المحلية

عن طريق اتصالها بجدة بحراً أو بقوص وأسوان براً عبر الصحراء الشرقية، وكذلك على خدمة من كان يمر بها من الرحالة لا سيما الرحالة الايطاليين فى طريقهم إلى الحبشة أو المقر الكاثوليكى بدنقلة، ومنهم فرنسسكو بلدوى Francisco Baldui وبيجولوتى Pegolotti فيما يقرب من سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٥م)، ونيقولا دى بوجيبونى Nicolo de Poggibonni فيما بين عامى ٧٤٦-٧٤٨ هـ (١٣٤٥ - ١٣٤٧ م) وبيزيجانى Pizzigani فى سنة ٧٦٩ هـ(١٣٦٧م) كما مر بها برتولوميو الفلورنسى Antonio Bartolomeo فى بداية القرن التاسع الهجرى(٢٢٢). وقد كتب مارينو سانودو Marino Sanado فصلا عن التجارة الهندية وأسماء الموانئ التى كانت تمر بها السلع، ولم يخطئ سانودو إلا فى أنه أطلق اسم عدن على مدينة عيذاب (Ahaden)(٢٢٣).

وتسجل حوليات المقريزى فى كتاب السلوك الأهمية التى أخذت تتسم بها الطور منذ طليعة القرن التاسع الهجرى كميناء رئيسية للتجارة الشرقية وقاعدة بحرية لنقل حجاج مصر والمغرب فى بحر القلزم إلى جدة. ففى سنة ٨٢٩هـ(١٤٢٥م) قدم فى المراكب الهندية إلى جدة أكثر من أربعين مركباً تحمل أصناف المتاجر والسلع، ويعبر ذلك التردد واسع النطاق للسفن التجارية على ميناء جدة عن المعاملة الطيبة التى كان يعامل بها التجار فى

هذا الميناء وشعورهم بالاطمئنان والراحة بخلاف ما كانوا يلقونه ببندر عدن من متاعب وانزعاج الأمر الذى نفرهم من النزول بعدن، فتركوا بندر عدن، واستجدوا بندر جدة عوضه، " فاستمر بندر جدة عظيماً، وتلاشى أمر عدن من أجل هذا، وضعف حال متملك اليمن وصار نظر جدة وظيفة سلطانية يخلع على متوليها، ويتوجه فى كل سنة إلى مكة فى أوان ورود مراكب الهند إلى جدة، ويأخذ ما على التجار، ويحضر إلى القاهرة به"(٣٢٤).

ويذكر المقريزى فى حوادث سنة ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) أن شحنات الفلفل القادمة من الهند كانت تصل إلى جدة وتدفع عليها المكوس ، ثم تحمل فى بحر القلزم من جدة إلى الأسكندرية، فيلزم الفرنج بشراء حمل الفلفل بمائة وثلاثين ديناراً، بينما كان سعره فى القاهرة يبلغ خمسين ديناراً(٣٢٥). وفى سنة ٨٣٥هـ (١٤٣١م) قدم أحد ملوك التكرور للحج، فرحل إلى الطور ليركب البحر إلى جدة، فاتفق أن توفى بالطور، ودفن بجامعها(٣٢٦).

وهناك عوامل تضافرت فيما بينها وأدت إلى اضمحلال عيذاب وتحول التجارة عنها إلى الطور، نوجزها فيمايلى:-

١- فداحة المكوس:

كان لجشع سكان عيذاب وبريتها، وشراهتهم فى تحصيل المال من

الحجاج والتجار (فى المحطات المختلفة التى يمرون بها للتزود بالماء والأقوات) بكافة السبل سواء بالتحايل على التغرير بهم فى الصحراء الخالية من الماء وابتزازهم فى شراء قرب الماء أو بشحنهم فى الجلبات كما تشحن الدجاج فى الأقفاص دون أى اعتبار لقدرات هذه الجلبات على حمل اعدادهم الكثيرة ممايعرضهم للغرق على النحو الذى أشرنا إليه من قبل أعظم الأثر فى نفور الحجاج والتجار منذ البداية من استخدام برية عيذاب طريقاً يسلكونه رغماً عنهم نتيجة للظروف السياسية والأمنية التى فرضت عليهم. وقد حاول السلطان صلاح الدين التخفيف عن الحجاج باسقاط المكوس المفروضة عليهم فى عيذاب أو جدة،[٣٢٧]، ولكنه لم يكن يعلم بأمر الزكاة التى كانت تفرض عليهم فى دواوين الصعيد[٣٢٨]. كذلك قدم صلاح الدين تسهيلات مالية كثيرة لتجار الكارم، وقد حملهم ذلك إثباتاً لرضاهم عن سياسته التجارية وتعبيراً عن مشاركتهم له فى جهوده الحربية، على أن يدفعوا بعيذاب فى سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) زكاة أربع سنوات دفعة واحدة[٣٢٩]. وكان السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز قد فرض على التجارة مكوساً جمركية باهظة نفرت تجار الكارم من سلوك طريق عيذاب، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أسقط هذه المكوس فى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) تشجيعاً للتجار على التردد على مصر[٣٣٠].

٢- اختلال ميزان الأمن فى برية عيذاب منذ قيام دولة المماليك فى مصر والشام:

تزايدت الاضطرابات فى الصعيد الأعلى بسبب ثورات العربان من جهة، واعتداءات البجة والنوبيين على جنوب الوادى والصراعات الداخلية بين العناصر العربية من جهة ثانية[٣٣١]، والاشتباكات بين المماليك والبجة من جهة ثالثة[٣٣٢]، وبين المماليك والعرب من جهة رابعة[٣٣٣].

ففى سنة ٦٤٩ هـ ثار العربان فى بلاد الصعيد وقطعوا الطريق براً وبحراً، فامتنع التجار وغيرهم من السفر[٣٣٤]، واستمرت الاضطرابات تسود فى برية عيذاب طوال عصر دولة المماليك مما أدى إلى قطع طريق التجارة لفترات تطول حيناً وتقصر أحياناً، مما نفر التجار من سلوك طريق عيذاب - قوص بسبب افتقاد صمام الأمن[٣٣٥]، وعجز سلاطين المماليك عن توفير الحماية للتجارة عبر عيذاب مما دفعهم إلى التماس طريق آخر يتوفر فيه الزمن، وأدى ذلك إلى قيامهم باستكمال السيطرة على الحجاز واتخاذ جدة فرضة للتجارة الشرقية عوضاً[٣٣٦] عن عيذاب.

٣- احتكار برسباى لتجارة التوابل:

عمد برسباى إلى اهمال عيذاب وتوجيه الاهتمام إلى جدة التى

أصبحت المركز التجارى الأول للتوابل فى البحر الأحمر، ففى سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م) شرع فى تعمير ثغر جدة التى تحولت بحكم السيطرة المملوكية عليها إلى مدينة مصرية، وأصبح يتولاها ناظر خاص من قبل سلاطين المماليك، وأول من تولاها الكاتب سعد الدين ابراهيم بن المرة الذى عمّر بجدة جامعاً وفرضة، فأصبحت ميناءً عظيمة، وجهز السلطان أميراً يقال له أرنبغا أمير عشرة جهز معه خمسين مملوكاً لدفع بنى حسين والقواد عن التعرض إلى جدة والإعراض عن النهب(٣٢٧). وأدى العزوف عن عيذاب والاهتمام بجدة إلى تحول عيذاب إلى مجرد مرسى محلى لا أهمية له، وإن كان قد ورد ذكرها على أنها المرحلة الأخيرة لبريد قوص، وذلك فى منتصف القرن التاسع الهجرى(٣٢٨). وجدير بالذكر أن مصر جنت بفضل المكوس التى كانت تفرضها على المراكب المارة بجدة مكاسب طائلة، إلى حد أن ناظر جدة حمل إلى خزانة مصر سنة ٨٢٩ هـ ما يزيد على سبعين ألف دينار عن هذا العام(٣٢٩)، وبلغ متحصل الموجبات والرسوم المفروضة على المراكب الواردة اليها بعد ذلك مائتا ألف دينار فى كل سنة(٣٤٠). وأصبحت جدة مستودعاً للتجارة الهندية، وانشأ برسباى ديواناً خاصاً بها أطلق على متوليه اسم شاد جدة، واحتكر برسباى تجارة التوابل، وأصدر لذلك مرسوما فى عام ٨٣٢هـ (اكتوبر ١٤٢٨) يحرم فيه شـراء التوابـل من

غير المتجر السلطاني[٣٤١]. وفرض رسوماً باهظة على الواردات والصادرات، كما أرغم التجار على شراء البضائع التي تبيعها مصر بسعر مرتفع، فارتفعت لذلك اسعار السلع ارتفاعاً فاحشاً وضج تجار الغرب الأوروبي من هذه الاحتكارات وزادت نسبة الرسوم التي كانت تفرض على التجارة الهندية بعد برسباي تدريجياً حتى بلغ العشر الذي كان يحصل عليها في جدة عشرة أمثال[٣٤٢].

وكانت السلع تنقل من ميناء جدة بحراً إلى ميناء الطور، فازدهرت الطور بازدهار جدة [٣٤٣]، وأصبحت الميناء المصرية الرئيسية في البحر الأحمر وسوقاً يتجمع فيه التجار حسبما يذكر Piloti بيلوتي في حدود ١٤٤٠م (٨٤٤هـ)[٣٤٤].

وأدى ارتفاع أسعار التوابل في أسواق الغرب الأوروبي إلى الاهتمام بالبحث عن طريق آخر إلى الهند غير الطريق المار بمصر، وتوصل الملاح بارتلميودياز Parthelomy Diaz في سنة ١٤٨٧ م (٨٩٣هـ) إلى التعرف على رأس الرجاء الصالح[٣٤٥] وفي هذه السنة عهد الملك حنا الثاني Jean II ملك البرتغال إلى كل من بدرو دي كوفيلها م Pedro de covilham والفونس دي بايڤا Alphonso de Paiva بمتابعة العمل الذي بدأه بارتلميودياز للوصول إلى الهند، فركبا سفينة من ثغر الطور

أبحرت بهما إلى بندر عدن، ومن هناك تمكن كوفيلهام من الوصول إلى ساحل مليار حيث شاهد كميات هائلة من الفلفل والزنجبيل وعرف أن أعواد القرنفل والدارصينى لا توجد إلا كمواد للإستيراد ، وأنها تجلب من مناطق نائية. ثم تابع رحلته غرباً، فزار الساحل الشرقى لافريقيا، وبلغته فى سفالة أخبار كثيرة عن القفسم الجنوبى من افريقيا حتى مدغشقر، ثم كتب تقريراً عن رحلته ليقدمه إلى الملك، أبلغه فيه امكانية الوصول إلى الهند وقاليقوط إذا سارت السفن بحذاء الساحل الغربى لإفريقيا إلى أن تدور حول رأس الرجاء الصالح ثم تصعد بحذاء الساحل الشرقى الإفريقى تجاه سفالة مدغشقر . أما صاحبه الفونس فقد توفى قبل أن يستكمل مهمته ، فقام هو بإكمالها، فزار الحبشة حيث وقع فى أسر الأحباش، ولم ير وطنه بعد ذلك قط، وقدر للملك إمانويل Emmanuel أن يتحقق فى عهده كشف الطريق إلى الهند يفضل جهود الملاح فاسكودى جاما Vasco de Gama(٣٤٦) ففى ٥ مايو ١٤٩٨ م (٩٠٤ هـ) تمكن فاسكودى جاما من الوصول بثلاثة سفن برتغالية إلى قاليقوط بالهند. ثم عمل امراء البحر البرتغاليون: فاسكودى جاما، وكبرال Capral، والبوكركى Albuquerque على منع السفن المصرية والعربية من الوصول إلى الهند، ووضع فاسكودى جاما فى سنة ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) قطعاً بحرية من أسطوله عند مدخل البحر الأحمر

لإغلاقه، كما استولى البرتغاليون فى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦م) على جزيرة سوقطرى[٢٤٧]، وترتب على ذلك تخلى التجار عن استخدام الطريق البحرى عبر البحر الأحمر، مما أدى إلى دثور ميناء الطور، واضمحلال سوقها التجارى، وهجرت ولم تلبث أن تحولت إلى مجرد قرية.

(٨)

النظم الإدارية فى عيذاب فى العصر الإسلامى

كان يشرف على خدمة الحركة التجارية بثغر عيذاب جهاز ادارى متكامل وكفء مهمته رعاية مصالح التجار والحجاج، وتوفير سبل الأمن لهم وحل مشكلاتهم، وفيمايلى عرض مبتسر للقائمين بشؤون الإدارة فى عيذاب ودور كل منهم فى القيام بالمهام الموكولة إليهم:

١- والى عيذاب:

كانت تتولى الشؤون الإدارية بعيذاب إدارة اسلامية خالصة[٣٤٨]، فى حين انفرد ممثلون عن البجة بالإدارة الإسمية، مكتفين فى ذلك بما كانوا يتلقونه من حكومة مصر من أموال وأقوات. وكانت لمدينة عيذاب بحكم موقعها داخل نطاق بلاد البجة عاملان أو واليان أحدهما يمثل البجة، والثانى يمثل السلطة المصرية، يؤكد ذلك قول ابن جبير: " وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان الذين يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها، وربما وصل فى بعض الأحيان واجتمع بالوالى الذى فيها من الغز اظهارا للطاعة، ومستنابه[٣٤٩] مع الوالى فى البلد، والفوائد كلها له إلا البعض منها[٣٥٠]، ويسوق الإدريسى نصا مقاريا يؤكد ماسبق

أن ذكرناه، يقول الإدريسي: " ومدينة عيذاب ينزلها عامل من قبل رئيس البجة، وعامل من قبل ملك مصر يقتسمون جبايتها بنصفين، وعلى عامل صاحب مصر القيام بجلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة، والرئيس المقيم بعيذاب من قبل ملك البجة ينزل الصحارى، ولا يدخل المدينة إلا غبا(٣٥١).

مماسبق يتبين لنا أن ولاية عيذاب كانت مشتركة بين المصريين والبجة. وكانت لوالى عيذاب سلطة تقليد قضاء الصعيد لمن يراه كفئاً لهذا المنصب، ويورد الإدفوى فى الطالع السعيد رواية تتضمن مايشير إلى أن شاعراً من شعراء الصعيد مدح والى عيذاب بقصيدة، فولاه قضاء الصعيد مكافأة له، يقول الإدفوى نقلاً عن الحافظ ابن بشكوال عن الأديب أبى الحسين على بن محمد بن النضر الأسوانى، أنه قال: " أملقتُ سنة، وكنت أحفظ كتاب سيبويه وغيره عن ظهر قلب حتى قلت: ان حرفة الأدب ادركتنى، فعزمت على أن أقول شعراً فى والى عيذاب أمدحه واستجديه، فأقمت إلى السحر، فلم يساعدنى القول، وأجرى الله القلم فكتب (قصيدة). قال: فقنعت نفسى، وما أقمت إلا ثلاثة أيام وورد كتاب والى عيذاب يولينى فيه خط الصعيد، وزادنى اخميم، ولقبنى بقاضى القضاة(٣٥٢). ويشك الأستاذ جارسان فى هذه الرواية، ويستبعد أن يكون فى استطاعة والى

عيذاب تعيين قاض على الصعيد، ويستنتج فى حالة إذا ما كان ذلك حقيقة ثابتة أن والى عيذاب لم تكن ولايته قاصرة على عيذاب، فالمرجع فى هذه الحالة أنه كان مكلفاً بإدارة الصعيد الأعلى كله، وكان يتنقل مابين قوص وأسوان وحتى عيذاب وفقاً لما تتطلبه الظروف(٣٥٢).

كذلك كان من حق والى عيذاب فى بعض الأحيان الفصل فى الخصومات، ويسوق جويتاين رواية استقاها من احدى وثائق الجنيزة جاء فيها أن طائفة من تجار اليهود المقيمين بمصر وصلوا فى جمادى الأول سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢ م) إلى عيذاب عائدين من رحلة تجارية من الهند مع جماعة من يهود المغرب كانوا فى طريقهم إلى بلدهم، وكان فى جملة تجار اليهود وكيل رئيس المجمع اليهودى فى مصر ويدعى العبد صافى، كما وصل معهم أيضاً تاجر يهودى حر يدعى ابن جماهر كان معروفاً من خلال وثائق أخرى لها صلة بتجارة الهند بولعة بالشغب، واتفق أن أقدم صافى على سب ذلك السيد فى مشهد من زملائه التجار المسلمين، واتهمه بأنه تصرف فى جارية بمدينة بربرة بعد أن أنجب منها طفلاً، فتقدم ابن جماهر بشكوى إلى والى عيذاب يتهم فيها صافى بأنه افترى عليه، وكان الوالى على دراية بمكانة صافى باعتباره نائب رئيس المجمع اليهودى بالفسطاط. ومع ذلك فقد أمر الوالى بعد أن شهد أصحاب ابن جماهر من

المسلمين ضد صافى بأن يجلد صافى بالسوط، فصاح صافى قائلاً: " أنا غلام رئيس المجمع اليهودى أجلد؟" ولكن الوالى لم يعبأ باحتجاجه، ونفذ فيه العقوبة، وأمر بايداعه السجن. غير أن بعض تجار يهود المغرب تشفعوا فيه، وتم اطلاق سراحه بعد أن أغرم مالا(٣٥٤).

وفى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وبالذات فى سنة ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) أصبح يتولى عيذاب وال أمير عشرة من قبل السلطان، من اختصاصه مراجعة والى قوص فى الأمور الهامة(٣٥٥)، وفى ذلك يقول المقريزى: " وأنعم (أى السلطان الناصر محمد) على آقوش المنصورى بإمرة طبلخاناه، وأقطع ثغر أسوان ليقيم بعيذاب"(٣٥٦). ومن الجدير بالذكر أن ولاية الأميرآقوش لعيذاب كان من أهدافها اقرار الأمور فى عيذاب، ووضع حد لاعتداءات العرب على الوافدين إلى عيذاب من التجار، وتعديهم على الشاد المقيم بها(٣٥٧).

٢- خطة القضاء:

تعتبر هذه الخطة أهم الخطط الإدارية على الإطلاق فى عيذاب، إذ كان القاضى يجمع بين عدة اختصاصات فى آن واحد. وكان قضاة عيذاب يختارون عادة من قوص ونواحيها، فجميع من أورد الإدفوى اسماءهم

ينتسبون إلى قوص أو الأقصر أو قفط أو دشنا، ولم يتول القضاء قاض واحد من أقصى جنوب الصعيد[٢٥٨] ومن الجدير بالذكر أن معظم من تولى قضاء عيذاب كانوا من بين من تقلبوا فى مناصب دينية[٢٥٩] فى الصعيد الأعلى، وكانو يجمعون بين الفقه والأدب وأن فترات توليهم القضاء كانت طويلة الأمد، وأنهم كانوا من الفقهاء الشافعية، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الناصر صلاح الدين يوسف أسند القضاء بعد عزله لقضاة الشيعة فى مصر إلى صدر الدين عبدالملك بن عيسى بن درباس المارانى الشافعى، ولهذا لم يستتب ابن درباس فى أقاليم مصر إلا من كان شافعى المذهب، وعلى هذا النحو اختص الشافعية بالقضاء، وتشددوا فى مذهبهم إلى أن قرر السلطان الظاهر بيبرس فى سنة ٦٦٤ هـ (١٣٦٥م) إجراء تعديل جذرى فى نظام القضاء بتعيين أربع قضاة يمثلون المذاهب الأربعة[٢٦٠]. ومع ذلك، فقد ظل المذهب الشافعى هو الغالب[٢٦١]. وفيمايلى أسماء من تولى القضاء بعيذاب منذ العصر الفاطمى.

(١) أبو القاسم الملخص نوفل بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن يونس الإدفوى:

كان يتولى الأحكام فى إدفو وعيذاب، وظل يؤدى عمله بعيذاب أربعين

سنة، وتوفى ببلدة ادفو فى ١٥ شوال سنة ٥٧٢هـ[٣٦٢]

(٢) شرف الدين محمد بن مسلم الأقصرى: كان من جلة فقهــــاء الشافعية، أخذ على الشيخ مجد الدين القشيرى، وكان معروفاً بجوده وكرمه، يكرم الوارد من التجار والحجاج. ولما تولى الشيخ الإمام أبو محمد بن عبدالسلام مدينة عيذاب رسم ألا يولىّ القضاء إلا فقيه شافعى معروف، فاجتمع به الشيخ شرف الدين محمد بن عبدالله بن أبى الفضل المرسى، وتسلّم منه قراره بتقليد قضاء عيذاب إلى ابن مسلم الأقصرى، تهامس الناس فيما بينهم حول قصور علمه فى الفقه، فلما بلغه مايقول الناس علّق قائلاً: " أعرف أنه قليل الفقه، ولكنه فى تلك المنقطعة (يقصد عيذاب) يخدم الناس، ويكررها". وأقام ابن مسلم بعيذاب مايقرب من ستين عاماً، وتوفى فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦م) ببلدة الأقصر[٣٦٣].

(٣) أبو حامد زين الدين محمد بن تقى الدين محمد بن محمد العثمانى الشريشى ثم القنائى: كان من فقهاء الشافعية، اشتغـــل بالفقه على الشيخ جلال الدين أحمد الدشناوى، وسمع منه الحديث وأجازه بالافتاء، وشارك مشاركة فعالة فى الأدب والنحو، وعرف باجادته للخط والنسخ، وتفوق فى فن التوريق[٣٦٤]. وتولى القضاء بأدفو وأسوان، كما تولى قضاء قفط وقنا وعيذاب، وتوفى فى ١٣ من شهر رجب سنة ٧٠٥هـ

(١٣٠٥م) بقنا ودفن بجبانتها[٣٦٥].

(٤) تقى الدين عبدالمنعم بن أحمد بن عبدالمجيد: قاضى عـــــيذاب

وخطيب جامعها، تولى الأحكام بها وبالأقصر وطود ما يقرب من ستين عاماً، وكان على حد قول الإدفوى ذا نفع " للحجاج والوارد، قوى الحرمة، نافذ الكلمة، ويقول شعر "، توفى وقد جاوز الثمانين فى شوال سنة ٧٣٢هـ(١٣٣١م).

(٥) كمال الدين محمد بن محمد بن نصير المعروف بابن الحسام القوصى:

كان فقيهاً مشاركاً فى النحو، قرأه على أبى الطيب محمد بن ابراهيم، وتولى الأحكام بدشنا وقاو وعيذاب والمرج وأعمالها، وتوفى بالمرج وهو يؤدى عمله فى سنة ٧٢٨هـ (٣٦٧) (١٣٢٧م).

وممن تولى قضاء عيذاب بالإنابة:

(١) أبو النضر تقى الدين محمد بن اسماعيل بن عيسى المعروف بابن دينار القفطى: كان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعى،

وناب فى الحكم بعيذاب، وتوفى بعيذاب فى سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م)[٣٦٨].

(٢) عبدالرحمـن بن موسى بن عبدالرحمن بن محمد الكندى الدشناوى: كان فقيها شافعى المذهب عمل معيداً بالمدرسة النجمية بقـوص، وناب فى الحكم عن قاضى عيذاب، وأم بجامع قوص، وتوفى فى سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م)(٣٦٩).

(٣) زين الدين نوح بن عبدالحميد القوصى: كان من فقهاء الشافعية، تولى الحكم بعيذاب والأقصر، واشتغل بالتدريس بمدرسة أبيه المجد بقوص وتوفى سنة ٧٢٠ هـ، (١٣٢٠م)(٣٧٠).

٣- بعض الوظائف الإدارية بعيذاب:

أ- صاحب الزكاة: كانت مهمته جمع الزكاة من تجار الكارم بعيـذاب إذ كانت قوانين الدولة تقضى بأن يدفع التجار زكاة سنوية فى كل موضع يتجرون فيه. وممن تولى هذا المنصب بعيذاب فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون عمر بن الفاكهانى(٣٧١).

ب- متولى شهادة الكارم: من مهام صاحب هذا المنصب واختصاصـه أن يقوم بالشهادة عن تجار الكارم فى مجلس القضاء، وممن تولى هذا المنصب بعيذاب شمس الدين بن محمد بن أبى بكر بن عبدالله بن مفرج

الأنصارى النوى الاسكندرى الشافعى، ولد فيما يقرب من سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١م)، وسمع من الدمياطى وابن دقيق العيد، وتفقه فى العلم العراقى، واشتغل فترة بالتدريس بمدرسة ابن السديد بقوص، ونسخ بخطه كثيرا من كتب الفقه واللغة والتصوف. ثم ولاه ابن السعيد مدرسة الخانوتية، ورحل بعد ذلك إلى أسوان فاكرمه واليها، ثم تعطل عن العمل فترة عانى خلالها الفقر، وصحب محب الدين ناظر الحبس، فولاه شهادة الكارم بعيذاب، ثم شفع له عند القاضي جلال الدين القزويني، فأجازه بالإفتاء، وولاه قضاء فوه، ثم نقله إلى قضاء أسيوط، ثم صرفه، فتوجه من عيذاب إلى الحج، وأراد دخول اليمن فمات هناك فى المحرم سنة ٧٤٠هـ (٣٧٢م).

جـ- المشرف على مايرد من التجار: وهو منصب اقتصادى هام، مهمة صاحبه الإشراف على مايصل مع التجار من سلع، وممن تولاه رجل يعرف بأبى جلى، قتله داود ملك النوبة فى غارته على ثغر عيذاب[٣٧٣] سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م).

د- قومة جامع عيذاب: ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن بعيذاب مسجد شهير البركة ينسب للقسطلاني[٣٧٤]، واعتقد أنه كان مسجداً ثانوياً غير المسجد الجامع الذى ذكره الرحالة الفارسي ناصرى خسرو فى معرض وصفه

لعيذاب[٣٧٥]. وقد كشف الباحث الأثرى مرى عن أنقاضه أثناء قيامه بالحفريات الأولية فى الموقع سنة ١٩٢٦. ويعتقد الدكتور بشير ابراهيم أن هذا المسجد الجامع كان المؤسسة الدينية الوحيدة بعيذاب، استناداً الى أن المؤرخين والرحالة لم يذكروا منشآت دينية (كالأربطة والمدارس والزوايا) غيره[٣٧٦]. وفى تصورى أن عيذاب كانت تضم عدداً من المساجد الثانوية لم يرد ذكرها فى كتب الجغرافية أو الرحلات، فميناء عيذاب كانت حركته التجارية فى غاية النشاط منذ أن أصبحت عيذاب ميناء للحط والاقلاع، ثم أن التواصل والاستمرار لقاصديها من حجاج بيت الله الحرام من مصر ومن المغرب والأندلس كان يستوجب وجود أكثر من مسجد واحد، جاء ذكره عرضاً فى سياق وصف ابن بطوطة لثغر عيذاب. ولا شك فى أن شخصيات أخرى أقامت مساجد نسبت الى بُناتها كالشأن فى المساجد التى اكتظت بها المدن الإسلامية فى المشرق والمغرب.

وكان يتولى خدمة المسجد الجامع بعيذاب عدد من العاملين والقومة نذكر منهم:

الأئمة: ومن بينهم الرحالة الفارسى ناصرى خسرو نفسه الذى تصـــــدر

للإمامة فيه استجابة لطلب أهل عيذاب أثناء اقامته بهذه المدينة التى طالت

إلى ثلاثة أشهر انتظاراً للرحلة البحرية إلى جدة فى الوقت الذى لم يتوفر للجامع إمام متفرغ. وأغلب الظن أن بعض قضاة عيذاب كانوا يتولون الإمامة والخطبة بجامع عيذاب، ومنهم على سبيل المثال القاضى تقى الدين عبدالمنعم بن أحمد بن عبد المجيد الذى أشرنا إليه من قبل. ومن بين من تفرغ للخطابة فى جامع عيذاب يحيى بن جعفر القفطى المعروف بخطيب عيذاب[٣٧٧]، وكان إلى جانب تعمقه فى علم الحديث[٣٧٨] والفقه شاعراً، وروى عنه شيث القفطى شعراً[٣٧٩].

المؤذنون: كانت للجامع مئذنة يؤذن منها المؤذنون، وقد جاء فى تاريخ ابن

الفرات اسم أحد المؤذنين الذين ينسبون إلى عيذاب يدعى بدر الدين حسن العيذابى (ت ٧٩٦ هـ / ١٣٩٢م) وكان يعمل رئيساً للمؤذنين بقلعة الجبل فى القاهرة كما اشتغل بالآذان بالمدرسة الناصرية بالنحاسين.

(٩)

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية فى عيذاب

كان سكان عيذاب أخلاطاً غير منظمة من البشر، أكثرهم من البجة [٣٨٠] الذين ينتمون إلى مناطق جبلية تمتد جنوباً إلى سواكن، وبعضهم من النوبيين، ومنهم أقوام وفدوا من الصعيد الأعلى ونزلوا عيذاب سعيا للتكسب وطلب الرزق، ومنهم عربان[٣٨١]، ومغاربة[٣٨٢]، وهنود، وفرس وأحباش[٣٨٣] ومنهم يهود[٣٨٤] ونصارى يعملون بالتجارة، وقليل من أهل عيذاب المستقرين من كان ينتمي اليها، ومعظم هؤلاء إما تاجر متنقل أو غواص يعمل فى استخراج اللؤلؤ من المغاصات المتناثرة فى الجزر الأمامية[٣٨٥] ، أو مرشد يقود القوافل من مدن الصعيد إليها، أو صاحب جلبات ينقل عليها الحجاج المسافرين إلى الحجاز لمعرفتهم الدقيقة بأحوال البحر[٣٨٦]، أو من يعمل بتربية الإبل والماشية[٣٨٧].

وكان من أخص سمات أهل عيذاب تكالبهم على جمع المال من الحجاج، وشراهتهم فى كسبه، ربما لأنها لم تكن تنتج من المواد الغذائية شيئاً وكانت تعتمد أساساً على مايرد إليها. ويذكر ابن جبير أنه لا يؤكل

فيها شئ إلا مجلوب[٣٨٨]، كما أن ناصرى خسرو يذكر أنه لا يوجد بها من الماء غير ماء المطر، فلا بئر ولا عين، فإذا لم تمطر السماء " أحضر البجة الماء وباعوه، كل قربة ماء بدرهم أو درهمين[٣٨٩]. وأكثر بيوتهم اخصاص، وقد لاحظ ابن جبير بناءً واحدا مستحدثا كسى بالجص[٣٩٠]. ويبدو أن مدينة عيذاب التى وصفها ناصرى خسرو بأنها صغيرة لا تضم أكثر من خمسمائة شخص[٣٩١] اتسعت فى عصر دولة المماليك اتساعاً عمرانياً غيّر الكثير من معالمها بحيث وصفها ابن بطوطة فى سنة ٧٢٦هـ، "بأنها مدينة كبيرة كثيرة الحوت (١٣٢٨م) واللبن ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر[٣٩٢].

وكان أهل عيذاب، ومعظمهم كما اسلفنا القول من البجة، يشتغلون بنقل السلع الواردة إلى عيذاب على ظهور الأبل إلى قوص[٣٩٣]، أو بنقل الحجاج براً وبحراً، ولم يكن من بينهم إلا من كان يمتلك جلبة[٣٩٤] وكان أكثر ما يقومون به من الأعمال بخلاف نقل المتاجر فى برية عيذاب أو إجازة الحجاج إلى ساحل جدة أو إلى ساحل عيذاب، أو الاشتغال بصيد الأسماك، تربية الجمال النجيبية والغنم التى كانوا يصدرونها من صحراء عيذاب إلى الحجاز[٣٩٥]. وكان من بينهم من يشتغل بالنخاسة، فكانوا يجلبون الرقيق من الحبشة، يؤكد ذلك أن إحدى الجوارى مثلت أمام قاضى عيذاب فى سنة ٤٩٤ هـ تشكو من أنها بيعت كجارية مسلمة فى عيذاب، ثم اعترفت

بعد ذلك بأنها يهودية، فأحيلت قضيتها إلى محكمة يهودية[٣٩٦].

وكانت فى كل من القلزم وعيذاب دار صناعة بحرية لصناعة السفن[٣٩٧] التى تصلح للملاحة فى البحر الأحمر تعرف بالجلبات أو الجلاب (مفردها جلبة)، وذلك لأن هذا النوع من السفن يتميز بأنها تقاوم الصخور الناتئة والشعاب المرجانية التى تكثر فى البحر الأحمر. وجاء فى كتاب " سلسلة التواريخ" أن مراكب سيراف " إذا ما وصلت فى هذا البحر المتيامن عن بحر الهند (يعنى البحر الأحمر) فصارت إلى جدة، أقامت بها، ونقل مافيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر فى مراكب القلزم إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه، وأنه لا ملوك فى شئ من سواحله ولا عمارة[٣٩٨]، لذلك كانت الملاحة فى البحر الأحمر تتطلب نوعاً خاصاً من السفن تتميز بألواحها المرنة التى تخرز وتخاط بليف النارجيل، بالإضافة إلى ملاحين ونواخذة مهرة عارفين بدروبه وتعاريجه، وفى ذلك يقول الحميرى :" وفى بحر القلزم جبال عالية فوق الماء وتروش طافية ومختفية، وطرق السفن فيها معلومة لا يدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر العالمون بطرقاته، والسير فيه ابداً بالنهار فقط ولا يسير به فى الليل أحد لصعوبة طرقه من تعاريج مسالكه[٣٩٩].

ويصف ابن جبير والمقريزى طريقة صناعة هذه السفن، فيذكر أنها

تصنع من أخشاب أشجار النارجيل[٤٠٠]، وقد تستخدم ألواح النارجيل، ثم تخرز وتخاط بليف النارجيل[٤٠١].

وعلى الرغم من اشتغال معظم سكان عيذاب بنقل السلع الشرقية عبر الصحراء والملاحة فى البحر الأحمر وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال، فإن المدينة لم تخل من شيوخ وعلماء وأدباء كان بعضهم يقيم بها فترات طويلة، نذكر منهم على سبيل المثال اسماعيل بن عبدالرحيم العسقلانى الإدفوى الشافعى (ت ٧٢٧هـ) وكان من جملة فقهاء عيذاب، أقام بها سنيين طويلة[٤٠٢]، ومنهم أيضاً فى العصر الفاطمى الإمام أبو القاسم عبدالرحمن ابن الحسين بن الحباب السعدى، الذى توفى بعيذاب[٤٠٣]، ومنهم الفقيه الشاعر الأديب القاضى أبو الحسن على بن محمد بن النضر الأسوانى[٤٠٤]. ومن الشعراء الذين مروا بعيذاب وأقاموا بها فترات قصيرة للعبور إلى الحجاز الشاعر عمارة اليمنى الذى بعثه أمير مكة فى سفارة إلى القاهرة الفاطمية[٤٠٥]، والشاعر أبو الفتوح نصر الله بن عبدالله المعروف بابن قلاقس السكندرى الذى توفى بعيذاب فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م)[٤٠٦]. كما زارها من الرحالة ناصرى خسرو علوى فى العصر الفاطمى، وأقام بها ثلاثة أشهر، والرحالة الأندلسى ابن جبير فى العصر الأيوبى، والرحالة المغربى الطنجى ابن بطوطة فى العصر المملوكى، وقد أقام ابن بطوطة

بعيذاب بعض الوقت كان سلطان البجة يحارب أثناءها المماليك وأقدم على خرق المراكب، فتعذر سفره فى البحر واضطر إلى بيع ما كان قد بقى من زاده، وعاد إلى قوص ومنها إلى مصر[٤٠٧].

وكانت عيذاب بحكم موقعها المتطرف، وانقطاعها عن العمران تُتخذ منفى للمغضوب عليهم من الأدباء منذ العصر الفاطمى[٤٠٨]، وممن نفى إلى عيذاب الشاعر نشو الدولة على بن مفرج المعروف بابن المنجم، وكان رفيقاً للشاعر ابن قلاقس السكندرى، وكان قد تولى ضمان الصابون والملاهى فى الدولة الأيوبية فظلم وعسف، فجأر الناس بالشكوى منه، فأدب بالنفى إلى عيذاب وتوفى فى سنة ٦٢٠هـ[٤٠٩].

ومن الشخصيات الهامة التى مرت بعيذاب فى طريقها إلى مصر الملك المسعود بن الكامل محمد في سنة ٦٢٢ هـ[٤١٠]، والأمير حسام الدين أبو على الذى أدى فريضة الحج من عيذاب فى سنة ٦٤٩هـ[٤١١]. والأمير ناصر الدين محمد بن المسحنى الجزرى الحاجب الذى رحل من عيذاب إلى اليمن فى سنة ٦٨٠ هـ رسولاً للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون[٤١٢]، ورسل صاحب اليمن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٥هـ وهما بدر الدين حسن أبى المنجا والطواشى جمال الدين فيروز[٤١٣]، والرحالة ابن بطوطة فى رحلته الثانية إلى مكة سنة ٧٤٩هـ[٤١٤]، والمجاهد

على بن داود بن رسول ملك اليمن عند عودته إلى بلده فى سنة ٧٥٢هـ[٤١٥].

ومن الجدير بالذكر أن تابوتى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وأسد الدين شيركوه عمه، نقلا إلى المدينة فى ٤ صفر سنة ٥٨٠هـ ودفنا بها، وكانا قد حملا إلى قوص وعدى بهما من بحر عيذاب إلى المدينة[٤١٦].

تم بعون اللـــــــه ..

أ.د. السيد عبدالعزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامى والآثار والحضارة الإسلاميــة

ومدير معهد دراسات البحر المتوسط

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الحـــــواشى

(١) ياقوت، معجم البلدان، مادة بحر فارس.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، تحقيق محيى الدين عبدالحميد، ج١، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠٧.

(٣) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١، ص٨٣، ٨٤- ابن حوقل كتاب صورة الأرض، بيروت، ص ٥١.

(٤) السيد عبدالعزيز سالم، التجارة البحرية فى الخليج العربى فى صدر الإسلام، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج١، الدوحة، ١٩٧٦، ص ٤٠٠.

(٥) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، طبعة دار صادر، بيروت، ج ١ص ١٨٢.

(٦) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٨٤.

(٧) ابن خردذابة، المسالك والممالك، نشره دى غويه ١٨٨٩، ص ١٥٣.

(٨) المسعودى، مروج الذهب، ج١ ص ١١٠.

(٩) ناصرى خسرو علوى، سفرنامة، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥ ص ٧٣.

(١٠) أحمد محمد العدوى، سواحل مصر، مستخرج من مجلة كلية الآداب، المجلد الخامس، ج١، ص ١٦٤.

(١١) من القلازم أى المضايقة، وسمى كذلك لأنه أخدود ضيق أو مضيق بين جبال وعن هذه التسمية ارجع إلى الهمذانى، (ابن الفقيه) مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٨٨٥، ص ٧٨ - المسعودى، مروج الذهب، ج٢ ص ٢٦٣ - ابن حوقل، ص ٥١ - ناصرى خسرو ، ص ٤٥ - المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ج١ ص ٢٧؛ القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، طبعة تراثنا، نسخة صورة من الطبعة الأميرية، ج٣ ص ٤٦٥.

(١٢) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ٥٢ - ابن الأثير ، كتاب الكامل فى التاريخ، طبعة صادر، بيروت ج ١١، ص ٤٩٠.

(١٣) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق الأستاذين مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة، ١٩٦٩، ص٩. وانظر أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق دكتور محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج٢، ص٣٥، ٣٧؛ ابن سعيد الأندلسى، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق دكتور زكى محمد حسن، ودكتور شوقى ضيف ودكتورة سيدة كاشف، ج١، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١١ - ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج٢ تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٣٠ - ابن

اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، ج٤، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٠٩.

(١٤) ناصرى خسرو علوى، سفرنامة، ص ٧٣ - ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ١٠ ويحدده ابن ظهيره مابين عيذاب والمقطم.

(١٥) ناصرى خسرو، المصدر السابق، ص ٧٣.

(١٦) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن، ١٩٠٧ ص ٧٠، ٧١، ٧٣.

(١٧) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٨٨ - الهمذانى، مختصر كتاب البلدان، ص ٧٨ - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت - ، ١٩٦٠، ص ٢٦ - الحميرى ، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت ١٩٨٤ ص ٤٦٦.

(١٨) الهمذانى، المصدر السابق، ص ٧٨، وانظر ياقوت، معجم البلدان، مادةالجار.

(١٩) الهمذانى، نفس المصدر، ص ٧٨ - المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج١ ص ٣٧٥ - ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ١٣٦.

(٢٠) عطيه القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٠.

(٢١) المسعودى، مروج الذهب، ج١ ص ١١. ويبلغ أقل اتساع له أى المسافة مابين سيفيه الشرقى والغربى عند بلدة مصوع ١٩٠ ميلا، وعند منطقة باب المندب ١٤ ميلا.

(٢٢) Schoff. A. M., The periplus of the Erythraean sea, London, 1912, P. 50. وانظر أحمد عمر الزيلعى، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧ هـ) الرياض، ١٩٨١ ص ١٧٣.

(٢٣) أحمد العدوى، سواحل مصر، مستخرج من مجلة كلية الآداب، المجلد الخامس ج١ ص ١٦١.

(٢٤) تتكون الشعاب المرجانية أساساً من هياكل بعض الحيوانات الأخطبوطية ذوات الأطراف المتعددة، والشعاب المرجانية نوعان: الشعاب الملامسة لليابس، والحواجز المرجانية التى تمتد بعيداً عن الشاطئ وتوازيه (محمد محمد أحمد سطيحة)، " المراكز العمرانية على ساحل البحر الأحمر فى اقليم مصر. والعوامل الجغرافية التى أثرت فيها "، رسالة ماجستير، الاسكندرية، ١٩٦١، ص٩).

(٢٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٥١.

(٢٦) كان التجار والمسافرون فى البحر استنادا إلى وثائق الجنيزة يتقون هذه المخاطر بالأحجبة، ويحملون معهم المصاحف (S.D. Goitein,

A Mediterranean society, Berkeley, 1967, PP. 321-324).

كما كانوا يكتبون أحياناً على جدران السفن بعض العبارات القرآنية للتبرك بها، ومنها " بسم الله مجريها ومرساها"، وفى عصر دولة المماليك كان تلاميذ أبى العباسى المرسى وغيرهم من المريدين إذا ركبوا السفن يقرأون حزب البحر المنسوب إلى شيخهم، وقد أورد ابن بطوطة فى وصف رحلته نص هذا الحزب (ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٢٦).

(٢٧) أحمد العدوى، المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٢٨) Kammerer. A., La Mer Rouge à travers ages, Le Caire, t. I, 1939, P. 68

(٢٩) يقول المسعودى فى ذلك: " ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون منها مهابها، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها إبّان هيجانه وأحوال ركوده وثوراته" (المسعودى، مروج الذهب، ج١ ص ١١٢).

(٣٠) ناصرى خسرو، سفرنامة ص ٧٢.

(٣١) ذلك هو رأى الدكتور أحمد فخرى الذى يعتقد أن بلاد بونت لم تكن قاصرة على الساحل الصومالى فحسب بل كانت تطلق أيضاً على الساحل الأسيوى، بمعنى أن بلاد بونت كانت تعنى المنطقة الواقعة حول مضيق باب المندب فى جهة الصومال واليمن (جيمس هنرى برستد، انتصار الحضارة، ترجمة دكتور أحمد فخرى، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٢٧، هامش ١) وان كان الدكتور عبدالمنعم عبدالحليم يرجح أن المقصود ببلاد بونت الساحل الشرقى للصومال، استناداً إلى قرائن أثرية ونباتية وحيوانية (عبدالمنعم عبدالحليم سيد، حضارة مصر الفرعونية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٢٩ هامش.

(٣٢) السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى، بيروت، ١٩٧١، ص١١٥، ١١٦.

(٣٣) ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة دكتور نجيب ميخائيل ابراهيم، القاهرة ١٩٧٣، ص ٢٠٩، عبدالمنعم عبدالحليم سيد، حضارة مصر الفرعونية، ج١، الاسكندرية ١٩٧٨؟ - برستد، انتصار الحضارة ص ١٢٨.

(٣٤) لطفى عبدالوهاب يحيى، العرب فى العصور القديمة، بيروت، ص ٣٠٦-٣٠٨.

٣،) انشأ بطليموس فيلادلفوس مدينة برنيس Berenice ٢٧٥ ق.م. على ساحل البحر الأحمر قرب رأس بناس وفى قبالة أسوان على الوادى، واختار موقعها فى الجنوب لقربها من مراكز التجارة ولخلو سواحلها من العوائق البحرية التى تمتد شماليّها، وتجنبا للتعرض للقراصنة الأنباط، ولوقوع برنيس على مقربة من مناجم الذهب والزمرد بوادى العلاقى بين قفط وبرنيس (سطيحه، المرجع السابق، ص ٦١). وكانت برنيس أهم موانئ مصر على البحر الأحمر وقد أطلق عليها بطليموس اسم أمه ومهد لها طريقاً برياً منظماً يربطها بقفط، وزوده بنقاط الحراسة وابراج ومحطات للمياه، وكذلك أنشأ ميناء ارسينوى Arsinoe عند مصب القناة الملاحية التى كانت تربط النيل برأس خليج السويس فى وادى الطميلات، ولعلها كانت تقع فى نفس الموقع الذى يشغله مدينة السويس الحالية. ومن المدن التى أسسها البطالمة فيلوتيرا Philotera التى أسسها ساتيروس على مقربة من ساوو الفرعونية عند مصب وادى جاسوس، وكانت ثانى أهم مدن مصر المطلة على البحر الأحمر، وخصصت لاستقبال الفيلة الإفريقية التى كانت تصل إلى مصر فى العصر البلطمى كما تتميز بوجود خام الرصاص فى أحد المناجم القريبة منها. ومن الجدير

بالذكر أن فيلوتيرا هواسم أخت بطليموس فيلادلفوس. ومن المدن بطلمية الإنشاء مدينة ميـــوس هورموس Myos Hormes (أبو شعر القبلى حالياً) وكانت تقع شمالى مدينة الغردقة الحالية، أسسها بطليموس الثانى شمالى فيلوتيرا سنة ٢٧٤ ق. م، وكانت أكثر أمنا للملاحة من ميناء برنيس، كما أسس مدينة ليكوس ليمن Lecous Limen (القصير) وكانت تقع قبالة مدينة قفط الحالية على وادى النيل، وكانت ليكوس ليمن أقل فى الأهمية من المدن سالفة الذكر.

(٣٦) جواد على، تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٣ (القسم السياسى)، بغداد ١٦٥٣، ص ٢٠.

(٣٧) سعد زغلول عبدالحميد، فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧٥، ص ١٤٤.

(٣٨) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢ ، ص ٤٥، ٤٦، وتولى قيادة الفرقة النبطية صالح Syllaeus وزير الملك النبطى عبادة الثالث (٣٠ ق.م – ٩ ق.م).

(٣٩) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢ ص ١٣٨ – السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، ص ١٤٤.

(٤٠) تؤكد النقوش السومرية والأكدية التى ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد قيام صلات بحرية بين أرض الجزيرة وبلاد دلمون (البحرين) وماجن (عمان) وملخا (اثيوبيا). (انظر جورج فاضلو حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٧، ٢٨) وكان للموقع الجغرافى الهام الذى تشغله عمان فى أقصى الطرف الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة العرب أعظم الأثر فيما أصاب العُمانيون منذ أقدم العصور من شهرة بحرية، ذلك أن هذا الموقع مابين مخرج الخليج الفارسى ومدخل بحر الهند الأعظم على الطريق التجارى البحرى الرئيسى المؤدى غرباً إلى شرق أفريقيا، وشرقاً إلى الهند والصين، وتعذر الاتصال براً بين عُمان وبين المناطق المجاورة لها كالبحرين وحضرموت لكثرة القفاريه، وقلة السكان، وتمانع العرب فيمابينهم قد أتاح للعُمانين التطلع منذ أقدم العصور إلى البحر المحيط، فخاضوا مياهه، وتمرسوا فى الملاحة فيه.

(٤١) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص ١٠٠.

(٤٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٢ ص ٤٨٧.

(٤٣) المقدسي، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص ١١٧.

(٤٤) ابن حوقل، صورة الأرض ص ٤٥.

(٤٥) المقدسي، المصدر السابق، ص ٩٢.

(٤٦) الشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، القاهرة (بدون تاريخ) ج ١ ص ١٥٦ - الحميرى ، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٥٤.

(٤٧) جواد على، المرجع السابق، ج ٨ ص ٩٨ - جورج فاضلو حورانى، العرب والملاحة ، ص ٨٢.

(٤٨) جورج حوراني، ص ٨٢.

(٤٩) نفس المرجع ، ص ٨٥.

(٥٠) محمد فاتح عقيل، أهمية الموقع الجغرافى فى سواحل مصر العربية، بحث فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٣ - محمد عبدالعال، بنورسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما، الاسكندرية، ١٩٨٠، ص ٣٧٧.

(٥١) جواد على، المرجع السابق، ج٣، ص ٢٠٤.

(٥٢) جورج حوراني، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٥٣) نفس المرجع، ص ١٠٧.

(٥٤) Wiet (Goston), Histoire de la Nation égyptienne, t, IV, L'Egypte Arabe, paris, 1937, P. 166.

(٥٥) Ibid. P. 166.

(٥٦) كانت برنيس ماتزال حتى ختام القرن الرابع الميلادى بأهميتها التجارية (انظر سعاد ماهر، محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٠٨).

(٥٧) هذه القناة حفرها الرعامسة لتصل بين النيل والبحر الأحمر، وقد أعاد نخاو الثانى (٦٠٩ - ٥٩٤ ق.م) حفرها لكى تتمكن السفن التي تبحر فى البحر المتوسط من الملاحة فى النيل حتى منف، ثم تأخذ طريقها فى الفرع البوبسطى، ومنها تخرج إلى هذه القناة، فتصل إلى مياه البحر الأحمر. ولم يتح لنخاو أن يستكمل حفر القناة حتى لا يستفيد منها الأجانب، وقدر لدارا الفارسي أن يستكمله (أحمد فخرى، مصر الفرعونية، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٤٢٥ وما يليها). وفى عهد الإمبراطور تراجان أعيد حفر هذه القناة (انظر: Wiet, Histoire de la Nation égyptienne, P. 166.

(٥٨) ذكر ابن عبدالحكم أن عمرو بن العاص " احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين ، فساقه من النيل

إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، فنفع الله بذلك أهل الحرمين، وسُمى خليج أمير المؤمنين. ثم لم يزل يُحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبدالعزيز، ثم ضيعه الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل، فانقطع، فصار منتهاه ذنب التمساح من ناحية طحا القلزم" (ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق الاستاذ عبدالمنعم عامر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٢٠). وذكر سعيد بن بطريق أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص " أن يحفر خليجا حتى يبلغ القلزم فتسهل حمولة القمح، فحفر عمرو الخليج الذى فى القنطرة وهو المعروف بخليج أمير المؤمنين، وكانت المراكب تحمل القموح والشعيرات والحبوب من الفسطاط إلى القلزم فى الخليج، وتُحمل فى البحر المالح إلى المدينة" (سعيد بن بطريق، التأريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩، ص ٢٧). وذكر المقريزى فى الخطط أن هذا الخليج يبدأ " بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها وبين المقس، عرف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين، وتسميه العامة اليوم (أى أيام المقريزى) الخليج الحاكمى وخليج اللؤلؤة، وهو خليج قديم... ثم إن عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفره لما فتح مصر، وأقام فى حفره ستة

أشهر، وجرت فيه السفن تحمل الميرة إلى الحجاز. فسُمى خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فإنه هو الذى أشار بحفره، ولم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقى حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر بالسويس ". (الخطط ، ج١، ص ١٢٧). وذكر السيوطى نقلا عن ابن عبدالحكم أن الناس أصابهم بالمدينة جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص وهو بمصر يأمره بحفر خليج من النيل حتى البحر تسير فيه السفن المشحونة بالطعام إلى الحجاز، فجمع عمر من الفعلة مابلغ منه ماأراد، " ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة". (السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصر، ص ٧٦ ومايليها).

(٥٩) سعاد ماهر، المرجع السابق، ص ٢٠٨ - عطيه القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة. ١٩٧٦، ص ٢٣.

(٦٠) السيوطى، حسن المحاضرة، ص ٧٧.

(٦١) ساعد على ازدهار القلزم أن موانئ البحر الأحمر فى قطاعه المصرى كانت تحت سيطرة جماعات بدوية من قبائل البجاة التى لم تدخل الإسلام إلا منذ بداية القرن الثالث الهجرى. يضاف إلى ذلك اتصال القلزم بخليج أمير المؤمنين الذى كان عاملاً هاماً فى تنشيط حركة الملاحة فى هذا الميناء على الأقل حتى منتصف القرن الثانى للهجرة، وكانت السلع الهندية التى تتجمع فى عدن والجار تحمل بحراً إلى القلزم، ثم تنقل منها إلى الاسكندرية. ثم ان القلزم كانت دار صناعة بحرية للسفن وقاعدة بحرية هامة في مصر (جورج حورانى، المرجع السابق، ص ١٨٩).

(٦٢) يذكر ابن حوقل أن الجار كانت فرضة المدينة " وهى أصغر من جدة، وجدة فرضة لأهل مكة على مرحلتين منها على شط البحر، وكانت عامرة كثيرة التجارات والأموال، ولم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها، وكانت تجارتهم تقوم بالفرس" . (ابن حوقل صورة الأرض، ص ٣٩) وفى جدة يقول الإدريسى: " وهى فرضة لأهل مكة وبينهما أربعون ميلا، وهى مدينة كبيرة عامرة، تجارتها كثيرة ، وأهلها مياسير ذوو أموال واسعة، وأحوال حسنة ومرابح ظاهرة، ولها موسم

قبل وقت الحجيج مشهود البركة تنفق فيه البضائع المجلوبة، والأمتعة المنتخبة، والذخائر النفيسة، وليس بعد مكة مدينة من مدائن الحجاز أكثر من أهلها مالاً، ولا أحسن منهم حالاً " ..." (الإدريسى، كتاب نزهة المشتاق، ج ١ص ١٣٨، ١٣٩).

(٦٣) عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص ٢٦. ولا أدرى المصدر الذى استقى منه الدكتور القوصى هذا الخبر، وقد عثرت فى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى على نص يتضمن المعنى اجمالا ويشير إلى أن عُمال الوليد بن عبدالملك كتبوا إليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس، فكتب إليهم يأمرهم ببناء المساجد (حسن المحاضرة، ج٢ ص٧).

(٦٤) محمد كريم ابراهيم، الفعاليات الاقتصادية لميناء عدن خلال القرنين الخامس والسادس الهجرى: دراسة تاريخية، مجلة المؤرخ العربى، العدد ٣٥، السنة ١٤، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٦٥) السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسى الأول، الاسكندرية ، ١٣٩٨ هـ، ص ٣٥٢.

(٦٦) المقريزى، الخطط، ج١ ص ١٢٧.

(٦٧) البلاذرى، فتوح البلدان، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، القسم الثانى، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٦١ - ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، ج٥، ص ٥٥٨ - عبد الرحمن سنبط قنيتو الإربلى، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، بغداد، ١٩٦٤، ص ٧٤.

(٦٨) الشعيبة مرسى للحجاز أقدم فى تاريخه من جدة، وكانت خوراً آمناً تقصده السفن للتزود بما تحتاج إليه من زاد وماء، ولتفرغ فيه ماتأتى به من سلع أفريقية وشرقية إلى الحجاز (جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨ ، ص ٩٨). وكانت الجار وجدة على حد قول المقدسى خزانتى مصر (المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٩٧). ومن الجار كان يحمل التجار إلى القلزم (ناصرى خسرو علوى، سفرنامة، تحقيق دكتور يحيى الخشاب، ص١١٢) وقد حازت الجار شهرة كبيرة بين مرافىء الحجاز فى العصر الإسلامى حتى عرف البحر الأحمر لوقوعها عليه ببحر الجار (ياقوت، معجم البلدان، مادة الحجاز). ثم ضعف شأن الجار واضمحل بسبب تسلط الأعراب عليها بالسلب والنهب، وتحول الحج إلى جدة منذ أواخر القرن السادس الهجرى (نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ،محطاتها بين الشرق والمغرب،

القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤٠)، كما بدأت تزداد أهمية ينبع فى العصر الأيوبى، واعتبرت الميناء الثانية فى الحجاز، ويذكر اليعقوبى، أن الجار ساحل المدينة، وإليه ترسى مراكب التجار والمراكب التى تحمل الطعام من مصر. (اليعقوبى، كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩٢، ص ٣١٣). أما جدة فكانت الميناء الأولى لمكة، وكانت الميرة تحمل إليها من مصر (اليعقوبى، ص ٣١٧). ويذكر القلقشندى أن جدة "ميناء عظيمة محل حط واقلاع، وإليها تنتهى المراكب من مصر واليمن، وغيرهما، وعنها تصدر من مكة" (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، مجموعة تراثنا، ج٤، ص ٢٥٨).

(٦٩) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، تحقيق دى غويه، ليدن، ١٨٨٩، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٧٠) عباس عمار، المدخل الشرقى لمصر، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية، المجلد ٢١، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١٣.

(٧١) عن ثورة الزنج ارجع إلى : الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج١١، أحداث سنة ٢٥٥ ص ١٧٨ ومايليها - المسعودى، مروج الذهب، ج٤، ص ١٩٤. ولمزيد من التفاصيل انظر: فيصل السامر، ثورة

الزنج، بغداد، ١٩٧١.

(٧٢) يذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفا أن أبا طاهر القرمطى رحل بجيشه فى سنة ٣١٧هـ فوافى مكة فى اليوم الثامن من ذى الحجة فقتل عدداً كبيراً من الناس، ونهب الكعبة واستولى على كسوتها وحليها "ونزع الباب وستائره، وأظهر الاستخفاف به، وقلع الحجر الأسود وأخذه معه – وظن أنه مغناطيس القلوب – وأخذ الميزاب أيضاً وعاد إلى بلده فى المحرم سنة ثمانى عشرة" (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ص ٤٢، ومايليها)، ويذكر ابن تغردى بردى أن أبا طاهر القرمطى أغار بقواته على مكة فى موسم الحج "فقتل الحجيج قتلاً ذريعاً فى فجاج مكة وفى داخل البيت الحرام – لعنه الله – وقتل ابن محارب أمير مكة، وعرى البيت، وقلع باب البيت، واقتلع الحجر الأسود وأخذه، وطرح القتلى فى بئر زمزم، وفعل أفعالاً لايفعلها النصارى ولا اليهود بمكة، ثم عاد إلى هجر ومعه الحجر الأسود، فدام الحجر الأسود عندهم إلى أن رد إلى مكانه فى خلافة المطيع". (أبو المحاسن بن تغردى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، مجموعة تراثنا، ج٢، ص ٢٢٤). وعن القرامطة وأعمالهم التخريبية انظر :

فاروق عمر، الخليج العربى فى العصور الإسلامية، دبى، ١٩٨٣، ص ٢٦٣. ولمزيد من التفاصيل عن حركة القرامطة انظر : محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة، ١٩٨٨ - عارف تامر، القرامطة، بيروت ١٩٧٩ - محمود اسماعيل، الحركات السرية فى الإسلام، القاهرة، ١٩٧٣ صفحات ١٥٩ - ٢١٦.

وهذا وقد أورد المقريزى فى اتعاظ الحنفا فصلاً كاملاً عن القرامطة وعيثهم فى العراق والخليج وبلاد العرب والشام ومصر، صفحات ٢٠٤ -٢٦٥.

(٧٣) ابن سعيد الأندلسى، المغرب فى حلى المغرب، ج١، القاهرة ١٩٥٣، ص٣٥٠ ومايليها.

وعن الماذرائيين ارجع إلى : سيدة اسماعيل الكاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، القاهرة، ١٩٥٠ ص ٣٧ - ٥٢.

(٧٤) ابن سعيد، المصدر السابق، ص ٣٥٢.

(٧٥) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن ابراهيم ابن كلس، "كان يهودياً كاتباً صائناً لنفسه محافظاً على دينه، جميل المعاملة مع التجار فيما يتولاه، واتصل بخدمة كافور الإخشيدى، فحمد خدمته، ورد إليه زمام

ديوانه بالشام ومصر فضبطه على حسب إرادته، وكان سبب حظوته عنده أن يهودياً قال له : (إن فى دار ابن البلدى عشرين ألف دينار وقد توفى، فكتب يعقوب إلى كافور رقعة يقول فيها إن بالرملة عشرين ألف دينار مدفونة فى موضع أعرفه وأنا أخرج أحملها، فأجابه إلى ذلك وأنفذ معه البغال لحملها. وورد الخبربموت بكير هارون التاجر، فجعل اليه النظر فى تركته، واتفق موت يهودى بالفرما ومعه أحمال كتان فأخذها وفتحها فوجد فيها عشرين ألف دينار، فباع الكتان وحمل الجميع...." (أبو القاسم على بن منجب الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، القاهرة ١٩٢٤ ص ٩٢، ٩٣). وعن يعقوب بن كلس أيضاً ارجع إلى ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت، ج٧، ١٩٧١، ص ٢٧ (ترجمة٨٣١). وذكر إبن عساكر فى تاريخ دمشق أنه كان فى قديم أمره خرج إلى الشام فنزل الرملة، وصار بها وكيلاً، فكسر أموال التجار وهرب إلى مصر، فتاجر كافوراً الإخشيدى فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع (ابن خلكان، المصدر السابق، ص ٣٣).

(٧٦) ابن سعيد، المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٧٧) ابن سعيد، نفس المصدر، ص ١٩٧.

(٧٨) نفس المصدر، ص ١٦٥.

(٧٩) Wiet. (G.), Histoire de la Naition Egyptienne, P.167.

(٨٠) حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، من أبحاث الأسبوع العلمى الثالث عن البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٠٥.

(٨١) المقريزى، الخطط، ج١، ص٣٧٥.

(٨٢) المقريزى، نفس المصدر، ص٣٧٥ - اتعاظ الحنفا، تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد، ج٢، القاهرة ١٩٧١، ص ١٥.

(٨٣) ناصرى خسرو علوى، سفرنامه، تحقيق الدكتور يحيى الخشاب، ص٦٦.

(٨٤) نفس المصدر، ص ٦٨، ٦٩.

(٨٥) نفسه، ص ٧٧، ٨٧.

(٨٦) اليعقوبى، البلدان، ص ٣٤١.

(٨٧) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٩٦.

(٨٨) ياقوت، معجم البلدان، مادة قلزم، ص ٢٨٨.

(٨٩) عن الشدة المستنصرية، انظر : المقريزى، الخطط ج٢، ص١٢٦ - ١٣١، اغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠، ص ٢٥ -٢٧.

(٩٠) المقريزى، الخطط، ج١، ص ٣٥٧.

(٩١) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣، تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد، القاهرة، ١٩٧٣ ص ٥٦ - ابن تغردى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٧١.

(٩٢) المقريزى، إتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٠١ - الخطط، ج١ ص ٣٧٤.

(٩٣) المقريزى، الخطط، ج١ ص ٣٧٤.

(٩٤) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٣٧-٦٤، زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧. ويقول ناصرى خسرو فى سياق وصفه لثروات مصر فى هذا العصر :"ورأيت أموالاً يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما صدقنى الناس فى فارس، فإنى لاأستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها" ويأتى ناصرى خسرو بمثل صارخ للتعبير عن عظم ثراء تجار مصر فيذكر أنه رأى نصرانياً من سراة مصر "قيل أن مراكبه وأمواله لا يمكن أن تعد، وحدث فى سنة أن كان النيل ناقصاً، وكانت الغلة عزيزة، فأرسل الوزير إلى هذا

النصرانى وقال :"ليست السنة رخاء، والسلطان مشفق على الرعية، فاعط ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضاً." وقال النصرانى :"أسعد الله السلطان والوزير، إن لدى من الغلة مايمكننى من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات" (ناصرى خسرو. سفرنامة، ص ٩٦٢.

ويسوق المقريزى مثلاً يعبر عن حالة الرخاء الإقتصادى التى شملت البلاد زمن الفاطميين فيذكر أن مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن حديد، متولى قضاء الإسكندرية فى عهد الآمر بأحكام الله، بلغ من علو الهمة وعظم المروّة أن طبيباً وصف لوالى الإسكندرية سلطان الملوك أبى تراب حيدرة فى حضور القاضى المذكور دهاناً، فأمر القاضى فى الحال بعض غلمانه بالمضى إلى داره لاحضار هذا الدهان،" فما كان اكثر من مسافة الطريق إلا أن أحضر حقاً مختوماً فك عنه، فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاث بيوت، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور، وبيت دهن بعنبر طيب، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته، فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن (أبو تراب حيدره) والحاضرون من علو همته"، وأهداه القاضى إلى الوالى المريض. ويعلق المقريزى على ذلك بقوله : "وذكر أن قيمة هذا المداف

وما عليه خمسمائة دينار، فانظر رحمك الله إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار، ودهن الشمع لايكاد أكثر الناس يحتاج إليه البته، فماذا تكون ثيابه وحلّى نسائه، وفرش داره، وغير ذلك من التجملات، وهذا إنما هو حال قاضى الإسكندرية، ومن قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة (أى القاهرة)؟ ومانسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبهتها إلا يسير حقير". (المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٢٨٢ ومايليها، وانظر بحثى Al-Sayed Abd al-Aziz Salem, Des Grecs aux ottomans grandeur et misère d'un Mythe, dans le Miroir Egyptien, Marseille, 1984.

(٩٥) Rabie (H.), The Financial system of Egypt, A.H. 564-741, (1169-1341 A D), London, 1972, p.101.

وانظر ايضاً :

حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى،ص ١٠٦.

(٩٦) الواسعى، تاريخ اليمن، القاهرة، ١٣٤٦ هـ، ص٢٢٣، وانظر ارشيبالد لويس، القوى التجارية والبحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٢٧.

(٩٧) W.Heyd, histoir du commrce du levant au Moyen-

âge, ed. par furcy Raynaud, Amsterdam,

1967, t.I,p.165. وعطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر،

ص ١٢٥ -١٢٧.

(٩٨) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٤.

(٩٩) ناصرى خسرو، سفرنامة، ص ٦٦، ٦٧.

(١٠٠) السجلات المستنصرية، تقديم ودراسة د. عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤. وتتضمن هذه السجلات والوثائق مايشير إلى العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين الخلافة الفاطمية فى مصر وبين الصليحيين إلى حد أن واحد من بنى صليح تسمى بعبد المستنصر (السجلات المستنصرية، ص ٢٠).

(١٠١) فردوس منصور عبيد، العلاقات اليمنية المصرية فى فترة حكم الصليحيين، بحث فى ندوة العلاقات اليمنية المصرية، عدد ١٦-١٨، يناير ١٩٨٩ ص ١٦١.

(١٠٢) يحيى بن الحسن بن القاسم، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ج١، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٥٦.

(١٠٣) أبو محمد عبد الله بن أحمد أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، صنعاء، ١٩٨١، ص ١٦٢.

(١٠٤) عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ١٠٥-١٠٨.

(١٠٥) عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة، ١٩٦١، ص ١١٠.

(١٠٦) أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الداودارى، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، وهو الجزء السادس من كتاب "كنز الدرر وجامع الغرر"، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٨٠؛ وانظر : الزيلعى، مكة وعلاقتها الخارجية، الرياض، ١٩٨١، ص ١٨٣.

(١٠٧) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٣ ص ٥٢٠ - ٥٢٤.

(١٠٨) القلقشندى - المصدر السابق، ج٤ ص ٣٢، وانظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط، ج١، البحرية الإسلامية فى مصر والشام، الإسكندرية، ١٩٧١، ص ١٥٧.

(١٠٩) كلود كاهن، تجار القاهرة الأجانب فى عصر الفاطميين والأيوبيين، من أبحاث ندوة القاهرة الدولية، ج٢، ص ٨٧١.

(١١٠) Dozy (R.), supplément aux dictionnares arabes,

Beyrout, 1968, t.2, P.468-G.Wiet & Hautecoeur, Les mosquées du Caire, Paris, 1932, Vol.I, P.89-wiet, l'Egypte arabe, dans "Histoire de la nation égyptienne", dirigée par Gabriel Hanotaux, t.IV, Paris, 1937, P.489

وانظر : نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١٤٢.

(١١١) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٩٠ هامش٤.

(١١٢) صبحى لبيب، التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو، ١٩٥٢ ص ٦.

(١١٣) عطية القوصى تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص١٠١.

(١١٤) عطية القوصى، المرجع السابق، ص ١٠٢ وانظر : الشاطر بصيلى، الكارمية، بحث فى المجلة المصرية للدراسات التاريخية، عدد ١٣، سنة ١٩٦٧، ص ٢١٧.

(١١٥) صبحى لبيب، التجار الكارمية، ص ٦، ٧.

(١١٦) حسنين ربيع، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانىء الحجاز واليمن فى العصور الوسطى، فى الكتاب الأول من

مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، ١٩٧٩ ص ١٣٨. حسنين ربيع، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٦.

وانظر نعيم زكى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها، ص ٣٠١ - ٣٠٥، عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٢، ١٩٧٥، ص ١٧ - ٣٣.

(١١٧) حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص ١١٦.

(١١٨) عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص ١٠٣.

(١١٩) حسنين ربيع، وثائق الجنيزة وأهميتها، ص ١٣٧ - البحر الأحمر فى العصر الأيوبى. ص ١١٦.

(١٢٠) ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق الأستاذ محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ج٤، ص ٢٠٤، ٢٥٧ - المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق دكتور محمد مصطفى زيادة، ج ٢ قسم ١، ص ١٣٢، ١٣٣ (بشأن تاجر كولمى يدعى عز الدين عبد العزيز بن منصور عبر الهند وقدم إلى مصر فى سنة ٧٠٤هـ ببضاعة قيمتها ٤٠٠ ألف دينار) - وانظر : سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص ٢٩١ - نعيم زكى، طرق التجارة، ص ١٤٣، ٢٣٣.

(١٢١) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(١٢٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٢، ٣٣ – نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٠٣.

(١٢٣) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ١٢ -١٤.

(١٢٤) Marcel Clerget, Le Caire, étude de Géographie urbaine et d'histoire économique, t.II, Le Caire, 1934 PP. 321 - 322.

نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٠٩.

(١٢٥) انظر هامش ١٢٠ (المقريزي، ج٢، قسم ١ من السلوك، ص ١٣٢، ١٣٣ – ابن تغردي بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٢٢٩ – ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، ج٢ ص ٤٩٣).

(١٢٦) صبحى لبيب، المرجع السابق، ص ١٢-١٤.

(١٢٧) السيوطى، كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج١، ص ١٧٦.

(١٢٨) انظر هامش ١٢٠، ١٢٥.

(١٢٩) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٠، ٢٢

(١٣٠) ابن حجر، المصدر السابق، ج٣، ص ١٨.

(١٣١) نفس المصدر ج٥ ص ٢٠.

(١٣٢) الإدفوي (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب)، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق الأستاذ (سعد محمد حسن، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٦٢٠.

(١٣٣) الإدفوي، المصدر السابق، ص ٦١٤.

(١٣٤) نفس المصدر، ص ٦٣٥.

(١٣٥) نفسه، ص ٩٥.

(١٣٦) ابن حجر، الدرر الكامنة. ج٤، ص ٥٠.

(١٣٧) نفس المصدر، ج٥، ص ٢٦.

(١٣٨) نفسه، ج١ ص ٤٨١، ٤٨٢.

(١٣٩) ويروى ابن بطوطة حادثة وقعت فى الإسكندرية فى صيف عام ٧٢٧هـ بين مسلمين وتجار مسيحيين – تعبر عن ثراء بعض هؤلاء الكارمية – انتهت بأن دخل الإسكندرية أميران أرسلهما السلطان الناصر محمد بن قلاوون لإخمادها، أحدهما يعرف بالجمالى والثانى يسمى طوغان، فقبضا على أعيان التجار بالثغر كأولاد الكويك وسواهم، وأخذا منهم الأموال الطائلة، وأقدما على صلب ٣٦ رجلاً من أهل الثغر من بينهم تاجر عظيم القدر يعرف بابن رواحة "كانت له قاعة معدة للسلاح، فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة، وبالمدينة قاعات على

هذه الصورة لكثير من أهلها، فزل لسانه وقال للأميرين، أنا أضمن هذه المدينة وكل مايحدث فيها أطالَبُ به، وأحوط على السلطان مرتبات العسكر، والرجال. فأنكر الأميران قوله، وقالا : إنما تريد الثورة على السلطان. وقتلاه "(ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، بيروت، ١٩٦٠، ص٢٨-

Wiet, Historie de la nation égyptienne; l'Egypte arabe,p.491)

(١٤٠) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١ ص ٤٣.

(١٤١) ابن حجر، نفس المصدر، ج٣ ص ١٢٠.

(١٤٢) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، المجلد ٨، بيروت، ١٩٣٩ حوادث سنة ٦٨٧ هـ، ص ٦٢.

(١٤٣) من أمثلة الأزمات التى مرت بها مصر فى تلك الفترة حملة لويس التاسع على مصر، وحملة هولاكو على الشام فى طريقه إلى مصر، وثورة العرب فى داخل مصر نفسها، وإقدام قطز على إرهاق المجتمع المصرى بما استنزفه من سائر طبقاته من أموال فى سنة ٦٥٨، فقد بدء تحركه لقتال التتار إلى تصقيع الأملاك وتقويمها، وأخذ زكاتها من أربابها، وفرض ديناراً على كل فرد من أهل مصر، وفرض ثلث التركات الأهلية ضريبة (المقريزى، السلوك، ج١ ص ٤٣٧). وقد

أبطل الظاهر بيبرس كل هذه المغارم والضرائب بعد توليه السلطنة.

(١٤٤) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق دكتور جمال الدين الشيال، ج٢، القاهرة ١٩٥٣ ص ٤٠٢.

(١٤٥) من ذلك الاصطخرى :"ويقال أن عيذاب ليست من أرض البجة، وأنما هى من مدن الحبشة" ٠الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، القاهرة، (١٩٦٠، ص ٤٢).

(١٤٦) يقول أبو الفداء:"قد اختلف فى عيذاب، فبعضهم يحد ديار مصر على وجه تدخل فيه وهو الأشبه الآن، لأن الولاية فيها من مصر وهى من أعمال مصر حقيقة، وبعضهم يجعلها من بلاد البجة، وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة" (أبو الفداء عماد الدين اسماعيل)، تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠، ص ١٢١ – ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن آيدمر العلائى) كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بيروت، قسم٢، ص ٣٥).

(١٤٧) Kammerer, La Mer rouge, t.I, P.80.

(١٤٨) اليعقوبى، كتاب البلدان، بريل، ١٨٩٢، ص ٣٣٥.

(١٤٩) البلاذرى، كتاب فتوح البلدان، القسم الأول، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٨٢.

الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٨٢.

(١٥٠) الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، نشره رفن جست، بيروت ١٩٠٨، ض ٢١٣ – ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٧، ص ٢٦٣، ٢٦٤–

Garcin (Jean claude) : un centre musulman de la haute Egypte médiévale : Ques, Pub. Institut Français d'Archéologie orientale du caire, t.VI, 1976, p.59.

(١٥١) على باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج١٤، القاهرة، ١٣١١ هـ ص ٥٦. وانظر محمد رمزى، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى، الجزء الرابع، القاهرة، ١٩٦٣.

J.Maspero & G. Wiet, matériaux pour servir de la géographie de l'Egypte, dans, Mémores de l'Institut d'Archéologie orientale du caire, t.XXXVI, 1919, P.128.

(١٥٢) J. Teodore Bent, A visit to Northern Sudan, the geographical Journal, VII, January - June,1896, PP. 335 - 356.

(١٥٣) kammerer, La mer rouge, t.I, P. 74.

(١٥٤) محمد محمد أحمد سطيحة، المراكز العمرانية على ساحل البحر الأحمر في اقليم مصر والعوامل الجغرافية التي أثرت فيها، رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة الإسكندرية سنة ١٩٦١، ص ٨٣.

(١٥٥) أحمد دراج، عيذاب، مقال بمجلة نهضة أفريقية يوليو – أغسطس، ١٩٥٨، ص ٥٥.

(١٥٦) Murray (G.W.), Aidhab, the geographical Journal, Vol. 68, 1926.

(١٥٧) محمد سطيحة، المرجع السابق، ص ٨٣.

(١٥٨) المقريزي، الخطط، ج١ ص ٢٥٧.

(١٥٩) القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٦٥.

(١٦٠) عندما زار الحسن الوزان مصر وطاف بمدنها ووصف بلاد النوبة ذكر اسم مدينة ضخمة كانت تقع على البحر الأحمر هي مدينة عيذاب لا أثر لها في عهده، فقال : " وكان لهم (البجة) مدينة ضخمة على البحر الأحمر تدعى عيذاب حيث كان يقوم ميناء واقع مباشرة تجاه ميناء جدة (الواقع على مسافة أربعين ميلاً من مكة، ولكن منذ مائة عام خلت قام هؤلاء (البجة) بنهب قافلة كانت تنقل السلع والأقوات إلى مكة. فاستشاط سلطان مصر غضباً (يقصد الأشرف

برسباى سلطان مصر المملوكية آنذاك)، وأرسل عن طريق البحر الأحمر أسطولاً احتل مدينة عيذاب وميناءها وخربها، وكان الميناء والمدينة تعود عليه بعوائد تقدر بمائة ألف شرفى ذهبى، ونجا البجاويون (يقصد أهل عيذاب) والتجأوا إلى دنقلة وإلى سواكن حيث يكسبون عيشهم قليلاً قليلاً، ولكن بعد قليل قام أمير سواكن بدعم من الأتراك (أى المماليك) المسلمين بالطبنجات وبالقسى، وألحقوا بهم هزيمة منكرة، إذ سقط منهم فى خلال معركة واحدة أكثر من أربعة آلاف قتيل من بين هؤلاء الرعاع الذين يعيشون عراه، كما أقتيد ألفٌ منهم إلى سواكن حيث تولى ذبحهم النساء والأطفال " (جان ليون الإفريقى، وهو الحسن بن محمد الوزان الزيانى، وصف افريقيا، ترجمه من الفرنسية الدكتور عبدالرحمن حميدة، الرياض (منشورات جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية - ١٣٩٩ هـ) ص ٥٥٨، ٥٥٩). وينفرد الحسن الوزان بهذه الرواية عن ثغر عيذاب، ولم نعثر على الإطلاق فى المصادر العربية المعاصرة للحدث أو المتأخرة عنه مايشير إلى قيام الأشرف برسباى بتخريب ثغر عيذاب، والأرجح أن هذه الرواية هى محض اختلاق من المؤلف أو رواية متواترة بين البجة نقلوها شفاهة إلى الرحالة الوزان وسنتحدث عن هذا الموضوع فيما

بعد عندما تتعرض لذكر الأسباب التى أدت إلى اضمحلال عيذاب ودثورها.

(١٦١) يقول القلقشندى: " وكان لهم (أى الفاطميين) أيضاً أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وماحولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم، وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب، ثم صارت إلى ثلاث، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول " (القلقشندى – صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٢٠).

(١٦٢) المقريزى، اتعاظ الحنفا، تحقيق د. محمد حلمي أحمد، ج٣، القاهرة ١٩٧٣، ص ٥٨. وقد اتخذ الأفضل فى ذلك خطوات عملية، يقول المقريزى : " وكتب (الأفضل) إلى والى قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه إلى عيذاب، ومهما وصل من جدة من الجلاّب لا يمكّن أحداً من الركوب فيها، وأن يتشوف مايدخل عيذاب من الشوانى والحراريق، فمهما كان يحتاج إلى اصلاح ومرمة ينجز الأمر فيه، ويُشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية. وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق، وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز ". وكان الأفضل كما ورد فى المتن قد

كتب إلى أشراف مكة يعلمهم بما فعله أمير مكة وما أجترمه فى حق التجار، فلما وردت المكاتبة على الأشراف بادروا بإرسال رسول من أميرهم إلى القاهرة، أساء الفاطميون استقباله، وشاهد هذا الرسول الجد فى مصر " والأهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه، فالتزم باحضار جميع اموال التجار وسأل التوقف قبل الاسراع بما عُوّل عليه من قصد صاحبه، وأجلّ لعوْده أجلا قريباً". فأجيب إلى ذلك، وسار فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع من أخذ من التجار من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر، بمحضر من الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء. واحتاط متولى الحكم عليه إلى أن تحضر جماعة التجار ويجرى الأمر على ماتوجبه الشريعة، وخلع على الرسول وأحسن إليه ووصل " (اتعاظ الحنفا، ص ٥٩).

(١٦٣) يعبر القلقشندى عن ذلك بقوله: " وقد كان (ساحل عيذاب) أكثر السواحل واصلاً لرغبة رؤساء المراكب فى التعدية من جدة إليه، وإن كانت باحته (أى مياه عيذاب) متسعة لغزارة الماء وأومن اللحاق بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر، ومن هذا الساحل يتوصل إلى قوص بالبضائع، ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر

النيل " (القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٤).

(١٦٤) Garcin, un centre musulman, P. 93

(١٦٥) Wiet (Gaston), Les Marchands d'épices sous les sultans mamlouks, Cahiers d'Histoire égyptienne, Le caire, 1955, PP. 80-140.
Goitein, Studies in islamic history and institutions, Leiden, 1966, PP. 350-360.

(١٦٦) Garcin, un centre musulman, P. 342.

- بشير ابراهيم بشير، عيذاب: حياتها الدينية والأدبية، مجلة نهضة افريقية، ص ٦١.

ومن أمثلة ما حدث للقاضى الشرف محمد بن مسلم الأقصرى الشافعى، قلده الشيخ الإمام محمد بن عبدالسلام والى عيذاب على قضاء عيذاب، " فتكلم الناس فيه، فقال: "أعرف أنه قليل الفقه، ولكنه فى تلك المنطقة يخدم الناس، وكررها. وأقام ابن مسلم الأقصرى حاكماً بها ستين سنة أو مايقاربها، وتوفى سنة ٦٨٥هـ". (الإدفوى، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص ٦٣٢). ومن الأمثلة الدالة على كثرة اشتغال قاضى عيذاب بشؤون التجار ومصالحهم وتعدد اختصاصاته أن قاضى قوص شرف الدين

ابراهيم بن عتيق سأل التاجر الكارمى أحمد بن عبدالوهاب بن حريز الاسنائى عن قاضى عيذاب، فقال : "(قلمه لا يجف، وعلامته الحمد لله وبه أسِفّ " (الإدفوى، المصدر السابق، ص ٩٥).

(١٦٧) ناصرى خسرو، سفرنامة، ص ٦٢.

(١٦٨) ناصرى خسرو، نفس المصدر، ص ٧٤.

(١٦٩) ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى) ، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القسم الأول، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت نشرة مصورة من طبعة بولاق، ١٨٩٣، ص ٣٥.

(١٧٠) الحميرى، الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشر وتحقيق دكتور احسان عباس، ص ٤٢٣.

(١٧١) عبدالمنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة، ١٩٦١، ص ١١٩، هامش رقم ٢٥٥ص ٢٤٢.

(١٧٢) نفس المرجع، ص ١١٩.

(١٧٣) السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج٢، ص ١٦٨- ١٧٢.

(١٧٤) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٢٨.

(١٧٥) كان الحجاج الذين يسلكون هذا الطريق البرى يخرجون من القاهرة فى أول ذى القعدة، فينزلون فى بركة الحاج أوجب عميرة (نسبة الى عميرة بن تميم التجيبى) ويقع على بعد ١٢ ميلاً شمالى القاهرة، ويمكثون به ريثما يتجمع ركب الحاج، ثم يتحرك الركب إلى البويب، فعجرود إلى أن يصل إلى حقل فالوجه ثم ينبع فبدر فرابغ فخليص فبطن مر ثم مكة (أحمد عمر الزيلعى، مكة وعلاقاتها الخارجية ، الرياض، ١٩٨١، ص١٠٢).

(١٧٦) نفس المرجع، ص ١٠١.

(١٧٧) ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ قسم١ ، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٠.

(١٧٨) الزيلعى، ص ١١٦.

(١٧٩) أحمد عمر الزيلعى، المرجع السابق، ص ١٠١.

(١٨٠) يذكر الحميرى أنه " فى بحر القلزم جبال عالية فوق الماء وتروش طافية ومخفية، وطرق السفن منها معلومة لا يدخلها إلا المهرة من رؤساء البحر، العالمون بطرقاته والسير فيه أبداً بالنهار فقط، ولا يسير به فى الليل أحد لصعوبة طرقه من تعاريج مسالكه" (الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٦٦، ٤٦٧).

(١٨١) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٨٧.

(١٨٢) المقريزى ، المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٤.

(١٨٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٨١.

(١٨٤) المقريزى، السلوك، ج٣، قسم ٢، ص ٧٧٤.

(١٨٥) المقريزى، نفس المصدر، ج٤ قسم ٢، ص ٨٣٦.

(١٨٦) كان هذا الموضع محاطاً بأشجار النخيل، يقع إلى شماله مسجد الشيخ البواب، وهو كما يبدو من إسمه كان المدخل القديم لقوص، ولكل من كان يفد إلى قوص للتردد على مدرستها والسماع على شيوخها (Garcin, un centre musulman de la Haute Egypte, P. 275).

(١٨٧) يذكر ابن جبير أن القاصد إلى عيذاب من قوص كان يتخذ أحد طريقين: الأولى تعرف بطريق العيدين وهى التى سلكها ابن جبير لأنها أقصر مسافة من الطريق الأخرى، والثانية طريق دون قنا، ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش (ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٦٧).

(١٨٨) الزهرى (أبو عبدالله محمد بن أبى بكر)، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨، ص ٤٣ - الزيلعى، مكة

وعلاقاتها الخارجية ص١٠١.

ولكن الأستاذ جارسان يرى غير ذلك، فيذكر أن طريق قوص - عيذاب كانت أطول وأصعب وأقل وفرة فى المياه من الطرق الجنوبية (Garcin, un centre musulman, P. 99).

(١٨٩) ناصرى خسرو، سفرنامة ، ص٧١ ، ٧٢. بدأ ناصرى خسرو رحلته الصحراوية من أسوان إلى عيذاب فى الخامس من ربيع الأول سنة ٤٤٢هـ (٢٩ يوليو ١٠٥٠م) ، وبلغ مدينة عيذاب فى العشرين من ربيع الأول. وجدير بالذكر أن الحجاج كانوا يسلكون فى النصف الأول من العصر الفاطمى الطريق من أسوان إلى عيذاب إما عبر وادى العلاقى أو باتباع طريق مختصرة تؤدى مباشرة إلى ساحل البحر، وهى التى سلكها ناصرى خسرو فى سنة ٤٤٢ هـ، J. Couyat, Les routes d'Aidhab, dans Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie oriental, vol. VIII, Le Caire, 1911).

(١٩٠) Gracin, Un centre musulman: Qus, P. 96-98.

(١٩١) المقريزى، الخطط، ج١ ، ص ٣٥٦، ٣٥٧ - ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، قسم١، ص ٢٠.

(١٩٢) بدأت قفط فى الاضمحلال منذ سنة ٤٠٠ هـ، وحلت محلها قوص

(المقريزى، الخطط، ج١، ص٤١٥).

(١٩٣) كانت على حد قول الإدفوى باب مكة واليمن والنوبة وسواكن والبالة، وفيها يقول القاضى الشاعر نجم الدين أحمد بن ناشى القوصى:

قوص دهليز يثرب فإلى كم ٠٠٠٠ وسط دهليز يثرب أتبختر

(الإدفوى، الطالع السعيد، ص ١٤).

(١٩٤) Garcin, un centre musulman: Qus, P. 99.

(١٩٥) البجة قبائل حامية أو على حد قول الحميرى جنس من الحبشة كان يسكن الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر منذ العصر البطلمى، ويذكر المسعودى أنهم كانوا ينزلون فيمابين بحر القلزم ونيل مصر، وأنهمّ تشعبوا فرقاً، وملّكوا عليهم ملكاً وفى أرضهم معادن الذهب وهو التبر، ومعادن الزمرد، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب الى بلاد النوبة، فيغيرون ويسبون ٠٠٠٠ وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعه بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا فى البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مصر " (المسعودى ، مروج الذهب، ج٢

ص١٨). وبلاد البجة غنية بمعدن الزمرد الذى لا يعرف زمرد مثله إلا ببلاد الهند (الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٨٥)، كما يتوفر فيها معدن الذهب الذى ينتهى عند عيذاب (الاصطخرى، المسالك والممالك، ص٤٢-اليعقوبى، كتاب البلدان. ص٣٣٣، ٣٣٤). وكان الخليفة المتوكل على الله العباسى قد أمر نائبه بمصر بغزو البجة، فوافى العسكر إلى عيذاب بالمراكب، واشتبكوا مع البجة فهزموهم، وصولح ملك البجة فى سنة ٢٤١ هـ على أداء الإتاوة والبقط، واشترط عليهم المسلمون ألا يمنعوا المسلمين من العمل فى معدن الذهب (ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٧، ص ٤٩).

(١٩٦) يصف ناصرى خسرو ضيق الطريق بقوله: " وبعد ثمان فراسخ بلغ الركب جهة تسمى ضيقة، وهى واد فى الصحراء، على جانبيه حائطاً من الجبال، وسعته مائة ذراع، حفر فيه بئر يخرج منه ماء كثير ولكنه ليس عذباً" (سفرنامة، ص ٧١).

(١٩٧) Garcin, op. cit. P. 95. وعن الأمن المتوفر فى قوص ونواحيها يقول الإدفوى: " ومن محاسن (اقليم قوص) الجليلة كثرة الأمن لا سيما فى الوجه القبلى منه، يسير الإنسان فيه ليلاً ومعه ما شاء، فلا يجد من يعترضه " (الإدفوى، الطالع السعيد، ص ٢٨).

ويؤكد ابن جبير أن المفازة بين قوص وعيذاب كانت " معمورة أمناً"، فالقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة.

(ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٦٦).

(١٩٨) ابن جبير ، المصدر السابق، ص٦٥، وانظر على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١٤، ص ١٢٨.

(١٩٩) ويجعلها ابن المجاور ثمانية دنانير، فى حين كان يفرض على الحجاج من غير المغاربة سبعة دنانير، والفارق دينار كان يفرض عليهم دية للكلب، وأصبح ذلك رسماً تقليدياً ثابتاً اتبع منذ أن قتل بعض المغاربة كلبا فى جدة، فبطش بهم الجند، وأرغموا المغاربة على أن يدفع كل حاج منهم ديناراً دية للكلب (ابن المجاور (جمال الدين يوسف بن يعقوب)، تاريخ المستبصر، ليدن، ١٩٥١، ص ٤٨).

(٢٠٠) يذكر ابن المجاور أنهم كانوا يؤخذون ويدلّون فى أحد صهاريج جدة، أو يحملون إلى احدى الجزر القريبة حيث يعذبون (ابن المجاور، المصدر السابق، ص ٤٨).

(٢٠١) المقريزى، السلوك، ج١، ص ٦٤.

(٢٠٢) المقريزى، المصدر السابق، ج١ ص ٦٤. وقد حدث فى عهد السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٦٦ هـ ما يماثل ذلك عندما اشتد

الغلاء بمكة، وعز وجود الأقوات مما أدى إلى هلاك جماعة كثيرة جوعاً، ونزح أكثر أهلها عنها، فجهز الأمير يلبغاً الأتابك فى جمادى الأول إلى مكة ألفى أردب قمحاً، وتابع إمداد مكة بالقمح حتى حمل إليها من مصر اثنى عشر ألف أردب فرقت كلها فى الناس، فعم النفع بها، وصدر مرسوم بإسقاط ما كان يؤخذ من مكس الحاج بمكة فيما يحمل إليها من البضائع باستثناء مكس الخيل، ومكس تجار العراق، وعوض أمير مكة عن ذلك اقطاعا بمصر، وحمل إليه مبلغ أربعين ألف درهم فضة بما يعادل الألفى مثقال ذهباً.

(المقريزى، السلوك، ج٣، ص٩٧، ٩٨).

وعن إسقاط صلاح الدين لما كان يفرض على الحجاج من مكوس انظر: أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق دكتور محمد حلمى أحمد، القاهرة، ١٩٥٦، ج٢، ص٣، وانظر أيضاً:
Garcinn, op. cit, P. 134.

(٢٠٣) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٥٧.

(٢٠٤) نسبة إلى عبدالمؤمن بن على خليفة المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى المغرب.

(٢٠٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٥ ومايليها.

(٢٠٦) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٧٤

(٢٠٧) Garcin, op. cit, P 138.

(٢٠٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٦٢-٦٤.

(٢٠٩) الأسعد ابن مماتى، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣، ص ٣٢٧.

(٢١٠) Garcin,op. cit. P.139.

(٢١١) عن هذه الحملة ارجع الى: رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، ج٣ بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٥٧ ومايليها، محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دى برين، ط الأولى والثانية، الإسكندرية، ١٩٧٨، ١٩٨٥م. وعن التفاصيل الواردة فى المصادر العربية انظر: أبو شامة، الروضتين، ص ٦٨٩ وما يليها، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج١٢، ص ٣٢٣، ٣٢٤ - المقريزى - السلوك ج١، ص ١٩٥-٢٠٨.

(٢١٢) عن تفاصيل هذه الحملة ارجع إلى المقريزى، السلوك، ج١، قسم٢ ص ٣٢٥-٣٦٣. وانظر : جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع فى الشرق الأوسط (١٢٥٠-١٢٥٤) القاهرة، ١٩٥٩.

(٢١٣) يقول الإدريسي: " وأهلها أخلاط والغالب عليهم أهل المغرب" (الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١٢٩).

(٢١٤) Gracin, op. cit. P. 140.

(٢١٥) المقريزي، السلوك، ج١، ص ٤١٤. وقد أخطأ الأستاذ جارسان في تأريخ سنة وفاته فذكر سنة ٦٥٨ هـ بدلا من ٦٥٦ هـ (Garcin, op. cit. P. 140).

(٢١٦) لم يصبح الطريق السينائى صالحا للعبور إلى الحجاز إلا بعد أن عقد صلاح الدين مع الصليبيين اتفاقية الصلح التى وقعت فى الرملة فى ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ (المقريزى، السلوك، ج١ ص ١١٠) وإذا كان قسم من حملة تورانشاه إلى اليمن قد استخدم هذا الطريق فى سنة ٥٦٩هـ، فماذا كان الفرنج يستطيعون عمله أمام قوة عسكرية في إمكانها الدفاع عن نفسها، وإذا كان المرور عبر العقبة قد تحقق مع قوة عسكرية، فإن استخدام هذا الطريق السينائى طريقاً تسلكه قوافل الحج لم يكن مأموناً بسببب القلاع الصليبية المتناثرة فى الأطراف الجنوبية من الأردن وفلسطين فى الكرك والشوبك وقلعة وادى موسى بالبتراء القريبة من خليج العقبة، والتى أثبتت فعاليتها فى سنة ٥٧٨ هـ عندما نجح البرنس أرناط فى

تسيير بعض سفنه فى خليج العقبة (Garcin, op. cit. P. 136) والإبحار جنوباً إلى عيذاب ومهاجمتها ونهب ما كان بها من بضائع.

(٢١٧) Gracin, op. cit. P. 135.

(٢١٨) المقريزى، السلوك، ج١ ص ١١٠.

(٢١٩) Garcin, op. cit, P. 137.

(٢٢٠) المقريزى، السلوك، ج١ ص ١٣٣.

(٢٢١) ابن جبير. رحلة ابن جبير، ص ٧١.

(٢٢٢) المقريزى الخطط، ج١ ص ٣٥٧ - حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص ١٢٢. سبق بيبرس فى ذلك السلطانة شجر الدر التى سلكت طريق سيناء فى طريقها إلى الحجاز سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م)، فأمرت بإصلاح الطريق وحفر الآبار واقامة البرك على امتداد درب الحج المصرى، فهى لذلك تعتبر أول من أعاد استخدام الطريق السينائى من السلاطين طريقاً للحج بعد أن فسد فترة طويلة من الزمن (أحمد رمضان، شبه جزيرة سيناء، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٠٨ - آمال العمرى، بركة الحاج خلال العصرين المملوكى والعثمانى، القاهرة، ١٩٨٧ ص ١٠).

(٢٢٣) كثر عدد الحجاج الذين يؤثرون الحج عبر سيناء إلى أيلة، ومن هناك براً بحذاء الساحل الحجازى إلى مكة. ومع ذلك فقد آثر آخرون الرحلة من جهة الطور، ومنهم على سبيل المثال ولى الدين بن خلدون قاضى قضاة مصر الذى ركب البحر من جهة الطور فى ١١ شعبان سنة ٧٨٩ هـ (١٣٨٧م) إلى الحجاز الشريف، وعاد إلى مصر فى البحر فى أوائل جمادى الآخر سنة ٧٩٠ من جهة الطور أيضا ثم السويس (ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٩، ج١، ص١٦، ٣١). وفى ربيع الأول سنة ٧٩٠هـ وصل جماعة من الحجاج فى البحر من الحجاز إلى الطور، ودخلوا القاهرة (ابن الفرات، المصدر السابق، مجلد ٩، ج١، ص ٢٥). ومنذ بداية القرن التاسع الهجرى أصبحت الطور الميناء الرئيسية للتجارة وللحج عن طريق البحر، ففى ٨٣٥ هـ قدم أحد ملوك التكرور للحج، فسار إلى الطور لركوب البحر إلى مكة، ولكنه توفى فى الطور ودفن بجامعه (السلوك، ج٤ قسم٢، تحقيق دكتور سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٨٧).

(٢٢٤) يذكر الأستاذ جارسان أن عيث الخوارزمية ومغول العراق عرقل وصول التجارة الشرقية من الخليج إلى بيروت وعكا، مما أزاد من أهمية البحر الأحمر الذى ظل منفذا رئيسياً لتجارة الشرق الأقصى،

وواصلت السفن القادمة من عدن تفريغ شحناتها من التوابل والتحف الخزفية والصينية والحرير فى عيذاب، ومعنى ذلك أن طريق عيذاب – قوص ظل يحتفظ بأهميته كطريق رئيسى لتجارة التوابل فى عصر دولة المماليك إلى أن بطل ذلك بعد سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٨/١٣٥٩م) (المقريزى، الخطط، ج١، ص ٢٥٧)، وتحول بعد ذلك إلى الطور، فالسويس. ويذكر القلقشندى أن ثغر الطور ظل معطلاً لكثرة مافيه من الشّعب إلى حدود سنة ٧٨٠ هـ عندما عمّر فيه الأمير صلاح الدين خليل بن عرام نائب السلطنة بالإسكندرية " مركباً وسفرها، ثم اتبعها بمركب آخر، فجسر الناس على السفر فيه، وعمروا المراكب فيه، ووصلت إليه مراكب اليمن بالبضائع، ورفضت عيذاب والقصير" (القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣ ص ٤٦٥).

(٢٢٥) Garcin, op. cit. P. 206.

(٢٢٦) الإدفوى، الطالع السعيد، ص ٥٢٤، ٥٣٨.

(٢٢٧) كانت عيذاب من بين مراكز علم الحديث، ففيها التقى ابن بطوطة سنة ٧٢٦ هـ بعدد من الفقهاء الصالحين ومنهم الشيخ الصالح مرسى والشيخ محمد المراكشى الذى زعم أنه ابن المرتضى الموحدى (ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣). والفقيه الشيخ

اسماعيل بن عبدالرحيم العسقلانى الإدفوى (ت ٧٢٧ هـ) الذى أقام بعيذاب سنين طويلة، وفيها تزوج بنت ابن حلى (الإدفوى، المصدر السابق، ص ١٦١) ومن أقام بعيذاب وسمع فيها الشيخ أبو حيان محمد بن يوسف الجيانى الأندلسى نزيـــــل القــاهرة (ت ٧٤٥) (المقرى، نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، نشر الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد، القاهرة . ١٩٤٩ ج٣، ص ٣١٦) وينقل المقرى رواية لابن وشيد عن أبى حيان أنه سمع فى عيذاب التاجر أبى عبدالله البرجونى (المقرى، المصدر السابق، ص ٣٣٩). ويبدو أنه أقام بعيذاب فترة ألف خلالها كتاباً عنوانه " نور الغبش فى لسان الحبش " (المقرى، نفس المصدر، ص ٣٠٧)، وفيها تزوج من جارية سوداء أنجب منها ولده حيان.

(٢٢٨) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ٧٣-٧٤ - الإدفوى ، ص ١٥٠ - ١٥١.

(٢٢٩) القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٣، ص ٤٦٥.

(٢٣٠) Kammerer, la mer rouge, t. I, P. 80.

(٢٣١) Donald S. Whitcomb, Janet H. Johnson, Quseir al-Qadim, 1978, Preliminary report, Cairo American research center in Egypt, Princeton,

1979, P. 4.

(٢٣٢) Donald Whitcomb, op. cit. PP. 4-7

(٢٣٣) Ibid. P. 7

(٢٣٤) Garcin, op. cit. PP. 209-210.

(٢٣٥) Donald Whitcomb, op. cit. P. 64.

(٢٣٦) Heyd, Histoire du commerce du levant, t. II, P444. Garcin; un centre musulman : Qus, P. 417

(٢٣٧) أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد) تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠، ص ٢٢، ١١١ - المقريزى، الخطط، ج١ ص ٢٨ - القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ٤٦٥).

(٢٣٨) Garcin, op. cit. PP. 6, 228.

(٢٣٩) يقول القلقشندى (وكان يصل إليه بعض المراكب لقربه من قوص ... وإن لم يبلغ فى كثرة الواصل حد عيذاب " القلقشندى، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٦٥).

(٢٤٠) Donald Whitcomb, op. cit. P.3.

(٢٤١) محمد فاتح عقيل، أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية، من كتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٣، ص ٥١ وانظر
Carcin, op. cit. PP. 228.

(٢٤٢) ياقوت، معجم البلدان، مادة القصير.

(٢٤٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٢٨١.

(٢٤٤) مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية: علوم طبية ٣٥٩، لوحة ٢١٦.

(٢٤٥) Garcin, op. cit, P. 228.

(٢٤٦) القلقشندى، المصدر السابق، ج٣ ص ٤٦٥.

(٢٤٧) Donald Whitcomb, Quseir al-Qadim, 1980, P. 4.

(٢٤٨) Garcin,op. cit ,P. 225, note 2.

(٢٤٩) القلقشندى، نفس المصدر، ج ٣ص ٤٦٥.

(٢٥٠) اعتمدت فى هذه الدراسة على :

Donald Whitcomb & Janet H. Johnson, Quseir al-Qadim, 1980, P. 9, 10, 39, 57-The port of Quseir al-Qadim, 1980, in field Museum of Natural history Bulletin, June, 1980, PP. 24-26, Report of the Archaeological investigations at Quseir al-Qadim, 1978 - Abdel Monem A.H. Sayed, Preliminary report on Quseir Qadim, reviewed by

Abdel Monem Abdel Halim, in Chronique d'Egypte, PP 293-297

Donald Whitcomb, Quseir, al-Qadim, P 104, 105.(٢٥١)

Ibid. PP 106, 107. (٢٥٢)

Ibid. P 108. (٢٥٣)

Donald Whitcomb, Quseir al-Qadim: Preliminary (٢٥٤) report about Quseir al-Qadim: Ann Roth, glass, 1978, PP 144 - 147

Ibid (Jonathan Brookner, P. 183. (٢٥٥) (Estelle, Whelan, PP. 211, 212).

Ibid, Estelle, Whelan, P. 213. (٢٥٦)

(٢٥٧) يقول ابن حوقل فى وصف مدينة أسوان " لها جهاز من الكتان المعمول شقة ومناديل إلى الحجاز ومصر" (ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص ١٤٨). وفيما يتعلق بأسيوط يذكر ياقوت أن أسيوط من عمل مصر " وبها مناسج الأرمنى والدبيقى المثلث" (ياقوت، معجم البلدان، مادة أسيوط).

Donald Whitcomb, op. cit.: Preliminary report,(٢٥٨) (Estelle, Whelan, P. 214-215).

Ibid. P 215 (٢٥٩)

(٢٦٠) Ibid. P. 217

(٢٦١) Ibid. P. 218.

(٢٦٢) Whitcomb, op. . cit. PP. 190, 199.

(٢٦٣) Ibid. PP. 203, 210

(٢٦٤) Donald Whitcomb, op. cit. (Michael Bates) PP. 227-237.

(٢٦٥) Ibid. PP. 203, 210

(٢٦٦) Ibid. PP. 247, 249.

(٢٦٧) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٢٦٨.

(٢٦٨) فردوس منصور عبيد، العلاقات اليمنية المصرية فى فترة حكم الصليحيين، بحث ألقى فى ندوة العلاقات اليمنية المصرية، ١٦ - ١٨ يناير ١٩٨٩، عدن، ١٩٨٩.

(٢٦٩) عطية القوصى، تجارة البحر الأحمر، ص ١٤٤.

(٢٧٠) أبو شامة، الروضتين، ج ١ ص ٢٤١، ٢٤٣ - ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٨٦ - ٤٩٢؛ حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص ١٠٧ - صبحى لبيب، التجار الكارمية، ص ٨ - محمد عبدالعال :

بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما، الإسكندرية، ١٩٨٠ – ص ٣٧٧ – ٣٧٨، وانظر أيضاً: الأيوبيون فى اليمن، ص ٨٢.

(٢٧١) تقع قلعة أيلة فى قول القاضى الفاضل على فوهة بحر الحجاز ومداخله (ابن واصل، مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، ج٢، القاهرة ١٩٥٧ص ١٣٠). وفى فتح صلاح الدين لأيلة يذكر المؤرخون أنه خرج إلى جهاد الفرنج فى ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ، وكان الفرنج قد بالغوا فى تحصينها لتكون منفذاً لهم على البحر الأحمر، وشحنوها بحامية منهم، فعمّر لها صلاح الدين عدة مراكب بالقاهرة حملت " إلى ساحل أيلة على الجمال وركبها الصناع هناك، وشحنها بالمقاتلة، وزحف إلى القلعة، ففتحت فى العشر الأول من ربيع الآخر واستباح أهلها قتلاً وأسراً، وملأها بالعِدد والعُدد " (ابن واصل، مفرج الكروب، ج١ تحقيق دكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٩٩ – أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، ج٢ ص ٤٨٦ – المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٣٢٠، الخطط، ج١، ص٣٢٧)، ويضيف ابن تغرى بردى أن درب الحجاز كان يلقى منها خطراً عظيماً (ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، حوادث سنة

٥٦٦هـ).

(٢٧٢) أصل بنو الكنز من قبيلة ربيعة، وكانت منازلهم حول أسوان. وقد اختلطت ربيعة بالنوبيين وصاهرتهم أما كنز الدولة فلقب منحه الحاكم بأمر الله لواحد منهم هو أبو المكارم هبة الله بن أبى عبدالله محمد حاكم النوبة عندما ظفر بالثائر أبى ركوة وأرسله إلى الحاكم بأمر الله. أما كنز الدولة المعاصر لصلاح الدين ويعرف بابن المتوج فقد قتله السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى سنة ٥٧٠ هـ عندما خالف صلاح الدين، وشق عليه عصا الطاعة، وأقدم على قتل عدد من قادة صلاح الدين (ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج١١، ص ١٨٦) فى الوقت الذى ثار فيه عباس بن شادى بمدينة قوص، فسير إليهما العادل حملة تضم عدداً كبيراً من العسكر، أوقعت الهزيمة ببنى الكنز، وسقط كنز الدولة أثناء القتال صريعاً، واضطر بقايا بنى الكنز إلى الانسحاب جنوباً إلى شمال النوبة (ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣ص ١٦، ١٧ وانظر عطية القوصى، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٧٥ - ٧٩) ويعلل الدكتور عطية القوصى السبب فى قضاء صلاح الدين على بنى الكنز برغبته فى دعم نفوذه فى صعيد مصر والقضاء على أية قوة يمكن أن تتهدده هناك حتى

يتفرغ لمواجهة الفرنج، وبأن صلاح الدين كان يسعى إلى بسط سيادته على الحجاز دعماً لخطته فى الجهاد ضد قوى الصليبيين وتأكيداً لسياسته الدينية أسقط فى سنة ٥٧٢ هـ ما كان يُجبى من حجاج المسلمين من مكس وزكاة أموال فى ميناء عيذاب، وعوض أمير مكة عما كان يجبى بجدة ومكة من مكس الحجاج ألف دينار وألف إردب من القمح سنويا بخلاف اقطاعات لهم بصعيد مصر وباليمن على النحو الذى أشرنا اليه من قبل. وتنفيذاً لهذه السياسة حرص على السيطرة على طريق الحج: قوص عيذاب - جدة الذى يقع داخل نطاق إمارة بنى الكنز، يضاف إلى ذلك أن الإحاطة بنفوذ بنى الكنز فى منطقة عيذاب وساحل البحر الأحمر يتيح له السيطرة الكاملة على تجارة هذا البحر (عطية القوصى، المرجع السابق، ص ٧٢ - ٧٦) أما بالنسبة للتجارة فقد قام صلاح الدين وخلفاؤه من بعده تسهيلات مالية للتجار المسلمين وغير المسلمين كانت تدر على مصر أرباحاً طائلة، ومن ذلك اقامة فنادق فى قوص تسهيلات لمبيت التجار منها فندق السلطان وفندق ابن العجمى (انظر: Garcin, un centre musulman, P. 141.

(٢٧٣) Kammerer, la Mer rouge, t. I, L'Abyssinée et l'Arabie, Le Caire, 1929, P. 72 - Heyd, Histoire

du commerce du Levant, t. II, P 58.

(٢٧٤) Carcin, op. cit. P. 101

(٢٧٥) S.D. Goitein, Letters and documents on the India trade in Medieval times, Pub. in A Journal of Medieval studies, No. 27, 1963, PP. 188 - 205.

وانظر ترجمة هذا البحث فى : " دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية " لجويتاين، ترجمة الدكتور عطية القوصى، بعنوان : خطابات ووثائق عن الهند فى العصور الوسطى، صفحات ٢٥١- ٢٧٧.

(٢٧٦) حسنين ربيع، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى، فى الكتاب الأول من مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، الرياض، ١٩٧٩، ولنفس المؤلف، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص ١١٩-١٢٠.

(٢٧٧) حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، ص ١١٥ - ووردت فى الوثيقة رقم III 5549 بالمتحف البريطانى عبارة " وقد خرج فى الكارم من أصحابنا اليهود". ويذكر الدكتور ربيع أن ذلك لا يعنى أن بعض اليهود شاركوا فى تجارة الكارم كما ذهب الدكتور عطية القوصى فى بحثه عن تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر

الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦، إذ أن التجارة الكارمية كانت قاصرة على تجار المسلمين دون غيرهم (حسنين ربيع، البحر الأحمر فى العصر الأيوبى). ص ١٠٥).

(٢٧٨) حسنين ربيع، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن، ص ٦٣٤.

(٢٧٩) تقع إمارة الكرك الصليبية فى منطقة من الأردن تعتبر الباب الشرقى لمصر ونقطة التواصل بين مصر والشام والعراق، كما تشغل موقعاً استراتيجيا فريداً يتيح لها التحكم فى طرق الإتصال بين مصر وجاراتها فى الشام والحجاز بالإضافة إلى أنها تسيطر على ميناء أيلة وتتحكم فى حركة التجارة فى هذا الميناء. وكان بلدوين ملك بيت المقدس قد أسس فى سنة ٥٠٩ هـ دعما للكرك قلعة فى الشوبك لمراقبة ملتقى الطرق المؤدية إلى القاهرة ودمشق ومكة، والترصد للقوافل التجارية القادمة من اليمن والبحر الأحمر عبر أيلة، كما أسس فى سنة ٥١٠ هـ قلعة أيلة، وحصنها، وبنى قلعة منيعة فى جزيرة فرعون القريبة من الساحل، فأصبحت هى وقلعة أيلة تتحكمان فى القوافل المارة بين مصر والشام والحجاز ومصدر ازعاج للملاحة فى البحر الأحمر. ومنذ أن تولى أرناط بارونية الكرك

فى سنة ٥٧٢ هـ وهو يسعى جاهداً على الترصد للمسلمين والاعتداء عليهم. ثم أنه تطلع إلى ماهو أخطر من ذلك، فقـد قر عزمه على مهاجمة الأراضـى الإسلامية المقدسـة فى الحجاز، ففى سنة ٥٧٨ هـ أعد سفناً تم صنعها فى الكرك، ثم حملت إلى بحر القلزم وشحنها بالرجال وأبقى منها مركبين " على حرزة قلعة القلزم" (يقصد قلعة أيلة الواقعة على خليج العقبة) لمنع أهلها من استقاء الماء، أما بقية السفن الصليبية فقد أقلعن نحو عيذاب، وهاجمت فى طريقها إليها سفناً إسلامية فى البحر الأحمر، فقتل الصليبيون وأسروا عدداً كبيراً من المسلمين وأحرقوا ستة عشر مركباً، ثم حلوا بعيذاب، فاستولوا على مركب كان ينقل حجاجا قادمين من جدة فوقعوا فى أسر الصليبيين، ولم يكتف هؤلاء بكل هذه الاعتداءات، بل أمعنوا فى عدوانهم على عيذاب، وتقدموا فى عمق بريتها وسلكوا الطريق المؤدية إلى قوص، فهاجموا قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وأبادوا من كان بها. ثم عادوا لمهاجمة عيذاب نفسها فبغتوا الأهالى فى بلدتهم فى غفلة منهم، إذ أنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط لا تاجراً ولا محارياً، وسطوا على مركبين قادمين من اليمن وقد شحنا بالبضائع، فانتهبوها، وانتهبوا أسواق عيذاب،

واستولوا على أقوات كانت معدة لميرة الحرمين، ثم أقلعوا بسفنهم شمالاً تجاه ساحل المدينة. فلما بلغت هذه الأنباء مسامع الملك العادل بالقاهرة بادر بإعداد حملة بحرية بقيادة أمير البحر الحاجب حسام الدين لؤلؤ، الذى عَمر بالقلزم عدداً من المراكب البحرية فى أسرع وقت، وانضمت إليها بضعة مراكب كانت قد عمرت بمصر والإسكندرية، وقسّم حسام الدين لؤلؤ أسطوله إلى قسمين: قسم منها أفرد لحصار حصن أيلة، وقد تمكن هذا القسم من الأسطول من الظفر بعدد من مراكب الفرنج، فأحرقها وأسر المسلمون من كان فيها، والقسم الأعظم من الأسطول أقلع إلى عيذاب متتبعاً لسفن الفرنج حتى أدركها بعد أيام، وأرست السفن المصرية على البر فى ساحل الحوراء، وركب الجند خيل العرب، فطاردوا من فر من الفرنج، وقبض عليهم وساق منهم اثنين تم نحرهما فى منى كما تنحر البدن، وعاد حسام الدين لؤلؤ ببقية الأسرى إلى عيذاب ثم ساقهم إلى قوص ومنها إلى القاهرة (ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج١١، ص ٤٩٠ - أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص ٣٦، ٣٧ - ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٢ ص ١٢٧ - ١٣١ ، ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق الدكتور سعيد عبدالفتاح

عاشور، ج٧، القاهرة ١٩٧٢، ص ٧١، ٧٢ - المقريزى ، السلوك ، ج١، ص ٧٩. وعن أهداف الصليبيين من محاولاتهم التهجم على مصر والحجاز انظر: Kammerer, La Mer Rouge t. I, PP. 59-62. ، يوسف حسن غوانمه، رؤية فى مفهوم الأمن القومى فى عهد صلاح الدين، مجلة المؤرخ العربى، العدد ٤٣، ١٩٩٠، ص ٩٣، ٩٤، وانظر له أيضاً إمارة الكرك الأيوبية، عمان، ١٩٨٢، ص ٥٢ - ١١٦). ويصف ابن جبير موكب أسرى الفرنج بثغر الإسكندرية إثر نزوله بها فى ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ، فيذكر أنه شاهد" مجتمعاً من الناس عظيماً، برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلو البلد راكبين على الجمال، ووجوهم إلى أذنابها، وحولهم الطبول والأبواق، فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا، بأمر تنفطر له الأكباد اشفاقاً وجزعاً، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وانشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم، ثم حملوا أنقضاها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه، فلما حصلوا بساحل البحر سمّروا مراكبهم، وأكملوا إنشاءها وتأليفها، ودفعوها فى البحر وركبوها قاطعين بالحجاج، وانتهى إلى بحر النعم، (لعله بحر النعام، وهو اسم موضع فى صحراء عيذاب ورد ذكره فى كتاب سفر نامة

لناصرى خسرو ص ٧٣)، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً، وانتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيها مركباً يأتى بالحجاج من جدة، وأخذوا أيضاً فى البر قافلة كبيرة تأتى من قوص إلى عيذاب، وقتلوا الجميع، ولم يحيوا أحداً، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله، وأحدثوا شنيعة لم يسمع مثلها فى الإسلام، ولا انتهى رومى إلى ذلك الموضع قط. ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول (ص) وإخراجه من الضريح المقدس، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم، فأخذهم الله باجترائهم عليه، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية، وحل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين، فلحقوا العدو، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نّيف على شهر ونصف أو حوله، وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها، ووجه منهم إلى مكة والمدينة، وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً، والحمد لله رب العالمين ". (ابن

جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٨-٦٠).

(٢٨٠) محمد عبدالعال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص ٩٧ وما يليها. ومع أن قيام الدولة الرسولية كان يعنى نهاية الحكم الأيوبى فى اليمن، وما ترتب على ذلك من نشوء علاقات عدائية بينهم وبين الأيوبيين استمرت طوال العصر الأيوبى، ولم تنته إلا فى عهد دولة سلاطين المماليك وبالذات فى سنة ٦٦٦هـ، وزادت الصلات اليمنية المصرية وثاقة ووداً بعد هذا التاريخ، وتبودلت بين البلدين الهدايا والتحف النفيسة (محمد عبدالعال، المرجع السابق ،ص ٢٧٤، ٢٧٦).

(٢٨١) يضاف إلى ماسبق أنها كانت معبراً للرحالة المسلمين كابن جبير وناصرى خسرو وابن بطوطة، الذين ركبوا السفن من مينائها إلى الحجاز والحبشة وزنجبار، وكذلك للرحالة الأوربيين لاسيما الإيطاليين منهم الذين كانوا يؤدون مهمات تبشيرية بالحبشة، أو يبحثون عن منفذ آخر لتجارة الهند غير البحر الأحمر. وترتب على مرور هؤلاء الرحالة الأوربيين بعيذاب أن سُجل اسمها على الخريطة الجغرافية التى وضعها دالورتـــو Dalorto فى عام ١٣٢٥ م والكتـــلانى

فى عام ١٢٧٥ م (أحمد السيد دراج، عيذاب، مجلة نهضة افريقية، العدد التاسع، السنة الأولى، يوليو ١٩٥٨، ص ٥٣).

(٢٨٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٥٥ - أبو شامة، الروضتين، ح٣، ص ٣ - المقريزى، السلوك، ج٢، ص ٦٤ وانظر.

Garcin, Un centre musulman, P. 134.

(٢٨٣) الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٢٣، وانظر محمد محمد سطيحه، المراكز العمرانية على ساحل البحر الأحمر فى اقليم مصر والعوامل الجغرافية التى أثرت فيها، رسالة ماجستير، الاسكندرية، ١٩٦١، ص ٨٦.

(٢٨٤) المقريزى، السلوك، ج٢ ص ٩٨.

(٢٨٥) ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١، القاهرة، ١٩٨٢ ص ٢٠.

(٢٨٦) المقريزى، الخطط، ج١ ص ٢٥٧ - القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣ ص ٢٦٥ ومايليها - حسنين ربيع، البحر الأحمر، ص ١٢٢.

(٢٨٧) Garcin, op. cit. P. 104.

(٢٨٨) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص ٥٨، ٥٩.

(٢٨٩) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٢٠.

(٢٩٠) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص ١٩١ - ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ص ١٩٩.

(٢٩١) المقريزى، السلوك، ج١، ص ٣٨٧ ومايليها.

(٢٩٢) يقول المقريزى فى ذلك : " وهموا بتغيير المماليك" (السلوك، ج١، ص ٤٧١).

(٢٩٣) المقريزى، السلوك، ج١، ص ٥٠٦ -

Garcin, op. cit. P. 218.

(٢٩٤) المقريزى، المصدر السابق، ج١ ص ٥٥٨.

(٢٩٥) بدر الدين العينى، عقد الجمان فى تاريخ أعيان الزمان، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٨، حوادث ٦٧١، ص١٠٥ وانظر: مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة. ١٩٦٠، ص ١٤٤، عطيه القوصى. تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨٦. Garcin, op. cit. P. 218. ويذكر العينى أن داود لما وصل إلى عيذاب، نهب التجار وقتل خلقاً كثيراً من أهلها من بينهم والى المدينة وقاضيها.

(٢٩٦) سعيد عبدالفتاح عاشور، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٧٨ - العصر المماليكى فى مصر والشام،

القاهرة، ١٩٧٦، ص ٨٠ - مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة، ص ٨٦، ٨٧.

(٢٩٧) يعترض الأستاذ جارسان على أن الدافع على قيام المماليك بمهاجمة سواكن والاستيلاء على دنقله بعد ذلك، ثم تجريد حملة مملوكية بعد ثلاث سنوات اشترك فيها سكنده المطالب بعرش النوبة هو حماية مصالح مصر الاقتصادية، ويرى أن تجريد الحملات ضد النوبة أصبح تقليداً متبعا فى عصر دولة المماليك، وإذا كان الأمير سيف الدين طقصبا الناصرى والى قوص قاد حملة ضد النوبيين فى سنة ٧١٦ هـ. (١٣١٦هـ) وصل فيها إلى ضفاف عطبرة، فإن ذلك لم يتم تطبيقا لسياسة معينة، ولكن لمجرد الرغبة فى التوسع والتوغل فى أعماق بلاد النوبة وبلاد السودان والحبشة، وربما لأن الحبشة المسيحية كانت تسعى إلى الارتماء فى أحضان الغرب المسيحى، عندما أحست بانتشار الإسلام بين النوبيين والبجة (Garcin, op. cit. P. 220).

(٢٩٨) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى المقريزى، السلوك، ج١، ص ٦٢٢ - ٦٢٣ - الخطط، ج١ ص ٣٥٥، ٣٥٦ - ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، صـ ٤٥ - ٤٧.

(٢٩٩) المفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيمابعد تاريخ ابن العميد، تحقيق E Blochet (بلوشيه)، باريس، ١٩١١، ج٢، ص ٢٢١ - بشير ابراهيم بشير ، عيذاب وحياتها الدينية والأدبية، ص ٥٨.

(٣٠٠) المقريزى، السلوك، ج١، ص ٥٨١، ٧٠٢ - سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ص ٢٨٦، ومايليها.

(٣٠١) وظلت عيذاب مسرحا للمعارك، إلى أن تحولت إلى اشتباكات ومصادمات بين رئيس البجاة والمماليك وقد شهد ابن بطوطة فى رحلته إلى بلاد الشام فى سنة ٧٢٦ هـ تغلب البجاة على المماليك وإقدامهم على خرق المراكب، مما ترتب عليه تعذر إبحاره الى جدة (ابن بطوطة، الرحلة ، ص ٥٣).

(٣٠٢) المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٣ ص ٧٠٠ - ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٢٦ - Garcin, op. cit P. 401 ويعتقد جارسان أن الموقعة دارت فى منطقة التقاء الطريقين المؤديين إلى عيذاب. أما بنو الكنز فكانوا يتحكمون فى الطريق ما بين أسوان وعيذاب (المقريزى، السلوك، ج٢ ص ١٠٩).

(٣٠٣) أورده ابن الفرات فى تاريخه (ج٨، ص ٦٥ - ٦٧) ومحيى الدين

إبن عبد الظاهر فى تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور (تحقيق د. مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٦٧). والقلقشندى فى صبح الأعشى (ج ١٢، ص ٣٤٠ - ٣٤٢).

(٣٠٤) القلقشندى، المصدر السابق، ج١٢، ص ٣٤٠ ومايليها.

(٣٠٥) يرى الدكتور محمد عبدالعال أن المقريزى إلتبس عليه الأمر، فذكر حملتين قام بهما علاء الدين مغلطاى فى حين أنهما حملة واحدة هى التى خرجت فى سنة ٧١٦ هـ (دكتور محمد عبدالعال أحمد، موقف مصر من النوبة فى العصر المملوكى الأول، نشرة معهد البحوث والدراسات الافريقية، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٤١).

(٣٠٦) المقريزى، السلوك، ج٢ ص ١٤٥، ١٤٦.

(٣٠٧) نفس المصدر، ص ١٦٢.

(٣٠٨) نفسه،ج٢، ص ١٩٤ - القلقشندى، صبح الأعشى،ج٤، ص
Garcin, op. cit. P. 210.

(٣٠٩) المقريزى، السلوك، ج١ قسم ٣ ، ص ٧٠٤- ابن الفرات، ج٧، ص ٢٣٤.

(٣١٠) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٧٢.

(٢١١) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢١٢) المقريزى، السلوك، ج٢، ص ٨٥٢ - ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة ج٢، ص ١١٩. المقريزى، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق دكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥، ص١١٨.

(٢١٣) المقريزى، السلوك، ج٢، ص ٨٨٦.

(٢١٤) المقريزى، نفس المصدر، ج٢، ص ٨٩٣.

(٢١٥) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٦٥ -

.Garcin, op. cit. P. 399

S. Claude Garcin, La Méditerranéation de l'empire mamelouk sous les sultans bahrides, Revista Degli studi Orientali, Vol. XLVIII, Roma, 1974, PP. 112-114.

وذلك إستنادا الى رواية أوردها الحسن بن محمد الوزان الزيانى المعروف بجان ليون الإفريقى نصّها: "وكان لهم (أى لشعب البجة) فى الماضى مدينة ضخمة على البحر الأحمر تدعى عيذاب، حيث كان يقوم ميناء واقع مباشرة تجاه ميناء جدة الواقع على مسافة أربعين ميلا من مكة. ولكن منذ مائة عام خلت (أى منذ قرن مضى

من تاريخ كتابة هذا المصنف فى ٩٣٤ هـ على وجه التقريب) قام هؤلاء بنهب قافلـــة كانت تنقل السلع والأقوات الى مكة، فاستشاط سلطان مصر غضباً، وأرسل عن طريق البحر الأحمر أسطولاً احتل مدينة عيذاب ومينائها وخرّبها. وكان الميناء والمدينة تعود عليه بعوائد تقدر بمائة الف شرفى ذهبى، ونجا البجاويون والتجأوا إلى دنقلة وإلى سواكن حيث يكسبون عيشهم قليلاً قليلاً. ولكن بعد قليل قام أمير سواكن، بدعم من الأتراك (أى المماليك) المسلحين بالطبنجات وبالقسى، وألحقوا بهم هزيمة منكرة، إذ سقط منهم فى خلال معركة واحدة أكثر من أربعة آلاف قتيل من بين هؤلاء الرعاع الذين يعيشون عراة، كما اقتيد ألف منهم إلى سواكن حيث تولى ذبحهم النساء والأطفال (جان ليون الأفريقى، وصف أفريقيا، ترجمه من الترجمة الفرنسية الدكتور عبد الرحمن حميدة، الرياض ١٣٩٩هـ ص ٥٥٨، ٥٥٩)

(٣١٧) يقول المقريزى: "واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب الى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة، وتلاشى أمر قوص من حينئذ" (المقريزى، الخطط ج١، ص ٣٥٧).

(٣١٨) يقول المقريزى فى الخطط: "ثم تلاشى بعد ذلك أمر الثغر (ثغر أسوان) واستولى عليه أولاد الكنز (من ربيعة) من بعد سنة تسعين

وسبعمائة فأفسدوا فساداً كبيراً، وكانت لهم مع ولاة أسوان عدة حروب إلى أن كانت المحن منذ ست وثمانمائة، وخرب اقليم الصعيد، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان، ولم يبق للسلطان في مدينة أسوان وال، واتضع حاله عدة سنين، ثم زحفت هوارة في محرم سنة ٨١٥ إلى أسوان وحاربت أولاد الكنز وهزموهم، وقتلوا كثيرا من الناس، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد، واسترقوا الجميع، وهدموا سور مدينة أسوان" (الخطط، ج ١ص ٣٥٠)

(٣١٩) أحمد عبد الرازق أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة)، القاهرة، ١٩٧٩،

(٣٢٠) Garcin, la méditerranéation, PP. 115-116.

(٣٢١) يعلل المقريزى سبب إزدهار ثغر جدة على حساب ثغر عدن إلى أنه جرت العادة منذ عهود سابقة أن مراكب تجار الهند كانت ترد إلى عدن، ولم يعرف قط انها كانت تتجاوز بندر عدن. وكان ديوان عدن يتعسف مع التجار الوافدين اليها ويسيء معاملتهم، ويفرض عليهم رسوماً باهظة دفعتهم إلى تجاوزه والإنصراف عن النزول في عدن ونفرتهم من التعامل مع هذا الديوان والتوجه بسفنهم إلى ثغر جدة. ويعبر ابن المجاور عن ذلك بقوله أن خروج الانسان من البحر

كخروجه من القبر، فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعد، ويقوم نواب والى عدن بمعرفة الجهة القادمة منها المركب والذاهبة اليها، وسعر البضائع التى على المركب، ويستخدمون صاحب المركب، ويكتب أسماء التجار الذين يتعامل معهم فى عدن، ويبرز صاحب المركب ما فيها من بضائع، ويرفع نواب الوالى كل الأخبار التى جمعوها عن المركب إلى الوالى، ثم يقوم المفتش بتفتيش الرجال الذين على المركب تفتيشاً دقيقاً، وتفتيش امرأة عجوز النساء بنفس الطريقة، فتضرب بيدها فى إعجازهن للتاكد من عدم وجود أسلحة وممنوعات أخرى لديهم كالمخدرات والخمور، وبعد ان يثبت عدم وجود ممنوعات فى المركب، وبعد ثلاثة أيام تنزل البضائع، فان كانت قماشاً تعد ثوباً ثوباً، وان كانت من البهار توزن وتفرض حكومة عدن رسوماً جمركية عليها. ابن المجاور (جمال الدين ابو الفتح يوسف بن يعقوب) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ويسمى تاريخ المستبصر، نشر أوسكار لافجرين L'ofgren ، ليدن، ١٩٥١– ١٩٥٤، ج١ ص ١٣٨، ١٣٩ وانظر سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى، القاهرة، ١٩٦٥، ٢٨٥، ٢٨٦– عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، اليمن فى ظل الإسلام، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٥٦).

(٣٢٢) أحمد السيد دراج، عيذاب، العدد العاشر من مجلة نهضة افريقية، أغسطس ١٩٥٨، ص ٦٢.

(٣٢٣) Carcin, un centre musulman, P. 224.

(٣٢٤) المقريزى، السلوك، ج ٤ قسم ٢، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٧٠٧. وممن تولى مهمة تسلم فلوس المراكب القادمة من الهند فى جدة سعد الدين ابراهيم بن المرة (السلوك، ج ٤ قسم ٢ ص ١٠٢٨، ١٠٣٠)

(٣٢٥) المقريزى: المصدر السابق، ج ٤، قسم ٢، ص ٨٢٣، ٨٢٤.

(٣٢٦) المقريزى، السلوك، ج ٤ قسم ٢، ص ٨٧٦.

(٣٢٧) المقريزى، نفس المصدر، ج ١، ص ٦٤

(٣٢٨) ابن جبير، رحلة بن جبير، ص ٦٢-٦٤

(٣٢٩) المقريزى، السلوك، ج ١ ص ٧٢.

(٣٣٠) Carcin, un centre musulman, P. 400.

ويذكر المقريزى ان قطز أحدث فى سنة ٦٥٨ هـ عند حركته لقتال التتار حوادث كثيرة منها تصقيع الأملاك وتقويمها وأخذ زكاتها من أربابها، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل اقليم مصر دينارا، وأخذ من التركات الأهلية ثلثها، فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قطز، وكتب به توقيعاً قرىء على المنابر، فكان جملة ما أبطله

٦٠٠ آلف دينار، فسر الناس ذلك وزادوا فى الزينة. (المقريزى، السلوك، ج ١ ص ٤٣٧ وما يليها.. Carcin, op. cit. p 226 – صبحى لبيب، التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥٢، ص ١٧، ٨٣).

(٣٣١) ذكرنا فيما سبق كيف أن حرباً ضارية اشتعلت فى سنة ٦٨٠ هـ بين عرب جهينة اليمنية وعرب رفاعة القيسية ومن المعروف أن قبيلة ربيعة كانت من بين القبائل العربية التى نزحت من اليمامة إلى النوبة فى العصرين الأموى والعباسى فى سنة ٢٣٨ هـ (اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ج١ ص ٢٣٤)، وخالطوا أهالى النوبة وتزوجوا منهم، وكانت عيذاب لبنى يونس بن ربيعة، ملكوها منذ قدومهم من اليمامة، فجرت بينهم وبين بنى بشر حروب انهزموا فيها، وركبوا البحر من عيذاب إلى الحجاز (المقريزى، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، الإسكندرية، ١٩٦١، ص ٢٩، ٣٢، ٤٤). ونزل بنو حنيفة وادى العلاقى وأسوان (ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣١، ٥٤) كما نزل بنو هلال بن عامر بالصعيد كله إلى عيذاب (المقريزى، المصدر السابق، ص ١٢٧). وترتب على مصاهرة قبيلة ربيعة لأهالى النوبة ظهور أجيال من الأبناء توارثوا الإمارة، ثم انتقلت ربيعة بعد

ذلك إلى أسوان وزادت ثروتها، وعظم سلطانها وسيطرت على النوبة والعلاقى فى نفس الوقت، وأمكنها أن تؤسس امارة شبه مستقلة اعترف بها الفاطميون وأنعموا على رؤسائهم بلقب كنز الدولة. وحافظ بنو الكنز فى العصر الأيوبى على علاقاتهم الودية بصلاح الدين. وكانت جهينة اليمنية قد جازت من ينبع إلى الساحل الغربى من البحر الأحمر وانتشروا فى اخميم وماحواليها شمالاً وجنوباً، وأقام بعضهم فى الصحراء الشرقية فى برية عيذاب (المقريزى، البيان والإعراب، ص ١٤٩).

(٣٣٢) شارك امراء المماليك فى الاضطرابات التى وقعت فى برية عيذاب وأدت بالتالى إلى قطع طريق التجارة وقد ذكرنا فيما سبق أن ابن بطوطة عند قدومه إلى عيذاب فى سنة ٧٢٦ هـ شاهد جانباً من هذه المعارك مما اضطره إلى العودة إلى قوص.

(٣٣٣) ارجع الى الفصل الخاص بأهمية البحر الأحمر كطريق تجارى إلى الشرق الأقصى. ويذكر المقريزى أن الأمير قرط متولى ثغر أسوان استبد بها واصطنع مع أولاد الكنز سياسة من التعسف الشديد مما دفعهم إلى الخروج على الطاعة وكثرة عيثهم فى البلاد إلى حد أن أسوان خرجت من يد الدولة ثم خربت (المقريزى، السلوك ، ج٣ ،

قسم١ ، ص ٣٥٢) وأدى ذلك إلى تجريد الحملات لاستنزالهم. ففى سنة ٧٦٧ هـ اشتد فساد بنى الكنز وطائفة العكارمة بأسوان وسواكن، فأقدموا على منع التجار وغيرهم من السفر لقطعهم الطريق وسلبهم لأموال الناس (السلوك، ج٣ ، ص ١٠٩).

وفى شهر رجب سنة ٧٨٠ أرسل الأمير قرط ١١ رأساً من رؤساء أمراء أولاد الكنز فعلقت الرؤوس على باب زويلة (المقريزى، السلوك ص ٣٢٥ – ابن حجر – (إنباء الغمر، ج١، ١٩٦٩، ص ١٩٧٥).

(٣٣٤) المقريزى، السلوك، ج١ ص ١٨٦.

(٣٣٥) ورد فى إحدى وثائق الجنيزة، وهى رسالة كتبها تاجر فى عيذاب ذكر فيها قلة الأمن فى الطريق، وأشار إلى أنه عانى الكثير بسبب ما تعرض له من السلب والنهب، وجاء فى رسالته: " فمابقى إلا السفر، فسافرت إلى عيذاب فزعاً خائفاً من نحس الطريق، وهب الله سلامة، وأنا معّول على الدخول إلى الهند" . وفى رسالة أخرى بعثها أحد التجار من عيذاب إلى أخيه فى القاهرة يخبره فيها بوصوله إلى ميناء عيذاب، ويقص عليه مالقيه من الشدائد، فيقول: " ولكن تعّوقى فى عيذاب أمر ضرورى ولشدة أكيدة لعظم الكراء وعدم الذهب، مضاف الى شدائد قاسيتها فى هذه السفرة، وماخرج

منى وتحقق من خسارة وضيعان فى البحر وغير ذلك، وما فعل معى فى البضائع فى دخولى لليمن وضيع على فيها وأحوجه للدخول للهند ببقية البضائع حتى ذهبت جميع ثمنها فى المكوس (حسنين ربيع، وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى، ص ١٣٧، ١٣٨).

(٣٣٦) وعلى الرغم من ذلك فقد كان يتردد على هذا الثغر بعض تجار الكارم، ويورد ابن حجر العسقلانى اسم تاجر كارمى توفى سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥/١٣٨٦م) استخدم هـــذا الطريـــــق بعد عام ٧٦٠ هـ (١٣٥٨م) وكان هذا الطريق (أعنى طريق قوص – عيذاب) الطريق المفضل للبعثات المسيحية القادمة من البندقية إلى أكسوم حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦م) وهى السنة التى أصدر فيها برسباى أمره بتخريب عيذاب، إذا أخذنا براوية ليون الافريقى، وإن كان الأستاذ جارسان ينكر هذه الرواية التى يرددها رجل لا يعرف عن مصر إلا النذر اليسير ويخلط بين المواضع والأزمنة، ولا سيما وأن المصادر العربية التى تؤرخ لمصر قبل هذا الحادث المزعوم وبعده لا تشير إلى شئ من ذلك (Garcin, un centre, PP. 421, 422) كما أن اللقى الأثرية التى تم العثور عليها فى موقع

عيذاب وخاصة قطع الخزف الصينى من عهد أسرة مينج تؤكد استمرار مزاولة عيذاب لدورها كميناء تجارية، على الأقل بعد قيام دولة المماليك الثانية بنحو ٤٠ سنة (Garcin, Jean L'eon l'Africain et Aidhab, dans Annales Islamologiques, Vol. XI, Le Caire, 1972).

(٣٣٧) ابن حجر، إنباء الغمر، تحقيق دكتور حسن حبشى، ج٣، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٤٠٤.

(٣٣٨) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بول رافيس، باريس ١٨٩٤، ص ١١٨.

(٣٣٩) المقريزى، السلوك، ج٤ قسم٢، ص ٧٠٧ ومايليها؛

Wiet, His, de la Nation Egyptienne, t. IV, P. 575.

وانظر: أحمد مختار العبادى، بحث فى كتاب: تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٤، ص ٥٧٠.

(٣٤٠) ابن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك ، ص ١٤.

(٣٤١) Wiet, op. cit. P. 574. - السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢. ص ٥١٨.

(٣٤٢) ابراهيم على طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة،

مجموعة " الألف كتاب" ، عدد ٢٧٩، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٣٤٣) Kammerer, op. cit. t I, P 66.

(٣٤٤) Heyd, His. du commerce, t. II, P 446.

(٣٤٥) Heyd, Ibid. P. 509.

(٣٤٦) Ibid. P. 510. وارجع أيضاً إلى : محمد عبدالعال، أضواء جديدة على ملاح: " فاسكودى جاما " ، مجلة الدراسات الافريقية، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٥٣.

(٣٤٧) ابراهيم طرخان، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٩١. محمد عبدالعال، البحر الأحمر والمحاولات الأولى للسيطرة عليه، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص ٧٩.

(٣٤٨) بشير ابراهيم بشير، عيذاب: حياتها الدينية والأدبية، مجلة نهضة افريقية، ص ٦٦.

(٣٤٩) يقصد نائبه أو عامله.

(٣٥٠) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٧١، ٧٢.

(٣٥١) الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج١، (بدون تاريخ) ص ١٣٤، ١٣٥ - وينقل الحميرى نص الإدريسى فى جملة ما أورده عن عيذاب (الروض

المعطار ، تحقيق احسان عباس، ص ٤٢٣).

(٣٥٢) الإدفوى، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، ص ٤٠٩، ٤١٠.

(٣٥٣) Garcin, Un centre musulman, P. 83.

(٣٥٤) Goitein, A Mediterranean Society, P. 133.

(٣٥٥) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤ ص ٢٧.

(٣٥٦) المقريزى، السلوك، ج٢، ص ١٩٤.

(٣٥٧) المقريزى، المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٤، Garcin, op. cit. p. 210.

(٣٥٨) Garcin, op. cit. P. 342

(٣٥٩) هذا فى حد ذاته مؤشر إلى وجود صلات دينية وثقافية وثيقة بين بلاد الصعيد الأعلى وعيذاب.

(٣٦٠) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٥٤٢، ٥٤٣.

(٣٦١) بشير ابراهيم بشير، عيذاب: حياتها الدينية والأدبية، ص ٦٤.

(٣٦٢) الإدفوى، الطالع السعيد، ص ٣٨٤. Garcin, op. cit. P. 171, Note 1.

(٣٦٣) الإدفوى، المصدر السابق ، ص ١٣٤، ٦٣٢ – ابن الفرات، تاريخ

ابن الفرات، ج٧، ص ١٢.

(٣٦٤) هو فن الزخرفة النباتية التى تعتمد على الفروع النباتية المتموجة والأوراق النباتية التى تبدو شحماتها مفصصة على نحو متناسق.

(٣٦٥) الإدفوى، المصدر السابق، ص ٦٢٦، ٦٢٧ - ويذكر ابن حجر العسقلانى أنه ناب فى الحكم (الدرر الكامنة، ج٤، ص ٣٣٧).

(٣٦٦) الإدفوى، المصدر السابق، ص ٣٤٥.

(٣٦٧) نفس المصدر، ص ٦٣٤.

(٣٦٨) نفس المصدر، ص ٥٠٣.

(٣٦٩) نفسه، ص ٢٩٧.

(٣٧٠) نفسه، ص ٦٨٤.

(٣٧١) محيى الدين بن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور ، تحقيق الدكتور مراد كامل ومحمد على النجار، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٧٢.

(٣٧٢) ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، ج٣، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣٧٣) مفضل بن أبى الفضائل، كتاب النهج السديد، والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ج٢، ص ٢٢١.

ولمزيد من التفاصيل حول مهاجمة داود لعيذاب راجع ماسبق، وانظر عطية القوصى، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ص ٨٦-٨٨.

(٢٧٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص ٥٣.

وأسرة القسطلانى من الأسرات التونسية الشهيرة أصلها من واحة توزر بإقليم قسطيلية، نزح أحد أفرادها إلى مصر فى سنة غير معروفة على وجه التحديد، ومن نسله ظهرت شخصيات علمية بارزة فى مجال الفقه والشريعه ولعل القسطلانى الذى ينسب إليه هذا الجامع هو الفقيه العالم قطب الدين أبو بكر محمد بن على القسطلانى المتوفى سنة ٨١٤ هـ، وحدّث بقوص والقاهرة ومكة (ابن حجر، الدرر الكامنة، ص ٣٥٩). ويضيف دكتور بشير ابراهيم بشير فى دراسته القيمة عن ثغر عيذاب، أن لهذا القسطلانى صلة وثيقة بعيذاب (بشير ابراهيم ، عيذاب : حياتها الدينية والأدبية ، ص ٦٥، هامش ٤٦).

(٢٧٥) ناصرى خسرو، سفر نامة، ص ٧٢.

(٢٧٦) بشير ابراهيم بشير، المرجع السابق ، ص ٦٥.

(٢٧٧) الإدفوى، المصدر السابق، ص ٢٦٤.

(٢٧٨) روى عنه الشيخ قطب الدين بن القسطلانى.

(٢٧٩) الإدفوى، نفس المصدر ، ص ٧٠٧.

(٢٨٠) هاجرت أعداد كبيرة من بنى حنيفة وبنى يونس من قبيلة ربيعة أكبر

القبائل العدنانية بذراريها من اليمامة إلى مصر ونزلت بوادى العلاقى (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٥٨) واستقر بنويونس فى ثغر عيذاب فى سنة ٢٣٨ (المقريزى، البيان والإعراب، ص ٤٤)، وظلوا يقيمون بها إلى أن طردهم منها بنو حنيفة فى طليعة القرن الرابع الهجرى وأرغموهم على الرحيل إلى الحجاز، كما انتشر بنو هلال بن عامر بن صعصعة بأسوان وماحولها حتى ثغر عيذاب (المقريزى، البيان والإعراب، ص ٢٨)، وعرف من نزل من بنى حنيفة من ربيعة فى أسوان فيمابعد ببنى الكنز. كذلك نزلت جهينة اليمنية بالصعيد فى إخميم، وأقام بعضهم فى الصحراء الشرقية فى برية عيذاب (المقريزى، المصدر السابق، ص ١٤٩ طبعة ١٩٨٩). ويذكر جارسان أن إنزال بنى هلال وبنى سليم القيسية بالصعيد الأعلى فى العصر الفاطمى إنما قصد به إيجاد نوع من التوازن مع العناصر اليمنية من جهينة وبلى، وكان الهلالية موالين للحكم الفاطمى، وكانت ربيعة القيسية التى نزلت فيما بين أسوان ومعدن العلاقى تؤدى نفس الدور قبل أن يحمل أبو المكارم هبة الله أمير ربيعة لقب كنز الدولة بعد أن سلم أبا ركوة إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (المقريزى، المصدر السابق، ص ٥٤). أما جهينة وبلى فكانت

عناصر مناوءة للفاطميين، الأمر الذى دفع السلطات الفاطمية إلى تحريك الجعافرة القرشيين إلى منطقة مصر الوسطى مما أدى إلى انسحاب جهينة نحو أسيوط فى حين تراجعت بلى جنوباً حتى قوص (Garcin, Op. Cit. P. 75.).

(٢٨١) البجة قبائل حامية أو على حد قول الحميرى جنس من الحبشة كانوا يسكنون الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر منذ العصر البطلمى. ويذكر المسعودى أنهم كانوا ينزلون فيما بين بحر القلزم ونيل مصر وأنهم " تشعبوا فرقاً وملكوا عليهم ملكاً وفى أرضهم معادن الذهب وهو التبر ومعادن الزمرد، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة فيغيرون ويسبون.... وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب، وسكن فى تلك الديار خلق من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها " (المسعودى مروج الذهب، ج٢، ص ١٨). وبلادهم غنية بمعدن الزمرد الذى لا يعرف زمرد مثله إلا ببلاد الهند (الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٨٥)، كما يتوفر فيها معدن الذهب الذى ينتهى عند عيذاب، (الاصطخرى، ص ٤٢ -

اليعقوبى، البلدان، ص ٣٣٣، ٣٣٤). وكان الخليفة المتوكل على الله العباسى قد أمر نائبه بمصر بغزو البجة، فوافى العسكر إلى عيذاب بالمراكب، واشتبكوا مع البجة، فهزموهم، وصولح ملك البجة فى سنة ٢٤١ هـ على أداء الإتاوة والبقط، واشترط المسلمون عليهم إلا يمنعوا المسلمين من العمل فى معدن الذهب (ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٧، ص ٤٩) ومع توافد عرب ربيعة على بلاد البجة واختلاطهم بهم منذ ٢٣٨ هـ وتزوج عرب ربيعة من نسائهم انتشر الإسلام بين البجة (عطية القوصى - تاريخ دولة الكنوز، ص ٢٥ - ٣٢). وفى نفس الوقت تمكنت ربيعة بفضل الأبناء المولدين من السيطرة على البجة، وتمكن اسحاق بن بشر من الظفر بإمارة البجة بالعلاقى بعد وفاة خاله عبدك البجائى فى سنة ٣٣٢ هـ، واستمر يتولى إمارة ربيعة فى العلاقى فترة إلى أن قتل (المقريزى ، البيان والإعراب، ص ٤٥، ٤٧). ثم خلفه ابن عمه الشيخ أبو عبد الله محمد بن على المعروف بأبى يزيد بن اسحاق، فلما قدم إلى العلاقى آثر أن ينقل مقر رئاسة ربيعه إلى أسوان، وهناك عظم مركزها وزادت ثروتها (عطية القوصى، المرجع السابق، ص ٣٧) وأسست ربيعة مدينة المحدثة، ومالبثت ربيعة أن ازداد نفوذها جنوبا حتى بلغ

مدينة مريس حاضرة مملكة مقرة المسيحية بالنوبة فى منتصف القرن الرابع الهجرى، ثم اندمج عرب ربيعة مع النوبيين اندماجا تاما (نفس المرجع، ص ٤٧). وعلى هذا النحو تمت لربيعة السيطرة الكاملة على إمارة العلاقى وعلى أهل النوبة فى مريس، وأصبحت أسوان مركز لرئاسة هذه الإمارة المتحدة. ومع ذلك ظلت أعداد كبيرة من ربيعة تقيم فى الصحراء الشرقية، وتتولى الإشراف على مناجم الذهب والزمرد، وتنوب عن ربيعة فى حكم البجة وحماية تجارة عيذاب. واعترفت الدولة الفاطمية بهذه الإمارة ومنحتها استقلالاً جزئياً فى إدارة شؤونها وأنعم بلقب كنز الدولة على كل أمير من أمرائها تقديراً لمكانتهم ولأنهم كانوا يؤلفون إمارة أشبه ما تكون بالدولة الحاجزة، حمت مصر العليا من غارات النوبيين. وقد اهتم الآمر بأحكام الله بذهب البجة وشجع عرب الكنز على استخراج أكبر قدر منه وأقام داراً لسك النقود فى قوص لتكون على مقربة من مناجم الذهب وذلك فى سنة ٥١٦ هـ فى قول (المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣ ص ٩٤)، وسنة ٥٢٣ هـ فى قول آخر (ابن بعرة، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق دكتور عبدالرحمن فهمى، القاهرة ١٩٦٦، ص ٥٠). كذلك اشتغل

بنو الكنز باستخراج حجر الزمرد وتصديره وزودوا البلاط الفاطمى بكميات كبيرة من الزمرد (عطية القوصى، دولة الكنوز، ص ١١٦) و أصبحت عيذاب على هذا النحو ميناء التبر والزمرد والعاج (البلدان، ص ٣٣٥).

(٣٨٢) كان ينزل بعيذاب جماعات كبيرة العدد من الحجاج والتجار المغاربة، وقد قابل ابن بطوطة شيخاً مغربياً فى عيذاب هو الشيخ محمد المراكشى الذى زعم أنه ابن الخليفة الموحدى المرتضى، ولقد أقام المغاربة فى قوص وإسنا وعيذاب وحميثراء أضرحة وزوايا، من ذلك ضريح الشيخ أبى الحسن على بن عبدالله بن عبدالجبار بن يوسف الشاذلى بحميثرا بصحراء عيذاب، وكان قد توفى فى ذلك الموضع فى طريقه إلى عيذاب فى ١٠ من ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ (محمد بن شاكر الكتبى، عيون التواريخ، ج٢٠، تحقيق الدكتور فيصل السامر والأستاذة نبيلة داود، ١٩٨٠، ص ٢٠١، ٢٠٢). وكان الشاذلى يحج عاماً ويقيم فى الاسكندرية عاماً، وكانت رحلة الذهاب تتم عن طريق صعيد مصر – عيذاب، ورحلة العودة براً وفى أثناء الرحلة البحرية كان يقرأ حزب البحر فى كل يوم، وهو مجموعة أدعية كان يرددها أملاً فى أن تكون الرياح مواتيه (ابن بطوطة،

الرحلة ، ص ٢٥ – النويرى السكندرى، الإلمام بما جرت به الأحكام
فى الأمور المقضية بوقعة الاسكندرية، تحقيق دكتور عزيز سوريال
عطية، حيدر إباد، الدكن، ج٥، ١٩٧٣، ص ٢٢٠ – (Garcin, op.
cit. P. 315 وذكر النويرى أنه حج فى سنة ٧٥٠ هـ من البحر،
فنزل حميثرة فزار قبر الشيخ أبى الحسن، فوجد الشيخ محمد
الإسكندرى المبيض، حمل له من الاسكندرية أخشاباً ومهيأة
ودرابزينا ركبها على قبره منقوشاً عليها اسم الشيخ أبى الحسن
وتاريخ وفاته، وعلق بدائرها مشكاوات من الزجاج مع بيض النعام "
(النويرى، الإلمام بما جرت به الأحكام، ص ٢٢٥). ومن زوايا
المغاربة فى قوص زاوية برهان الدين ابراهيم الأندلسى، وزاوية
الشيخ عبدالواحد المكناسى بإسنا .(Garcin, op cit P. 320)
هذا وقد عُرف المغاربة بشهرتهم فى قيادة السفن والملاحة منذ عصر
مبكر، وذاعت شهرتهم فى الجهاد البحرى فى العصر الأيوبى، وقد
اشترك جماعة من أنجاد البحريين المغاربة فى مهاجمة مراكب
الصليبيين عند عيذاب فى الغزوة التى قام بها البرنس أرناط
(المقريزى، السلوك، ج١ قسم١ ، ص ٧٩).

(٣٨٣) كان الأحباش يشكلون كثرة عددية فى عيذاب، ويذكر ابن جبير أنه

نزل فى عيذاب بدار تنسب لمونح، أحد قوادها الحبشيين الذين تأثلوا بها الديار والرباع والجلاب، وكانت عدن وعيذاب وقوص خط السير للسفارات الحبشية إلى مصر واليمن، ومنها السفارة التى شاهدها الرحالة عبداللطيف البغدادى فى القاهرة سنة ٥٩٩ هـ. (ابن جبير، الرحلة ص ٦٦).

(٣٨٤) نستدل من وثائق الجنيزة على أن عدداً من تجار اليهود كانوا يقيمون بعيذاب، معظمهم من الطائفة اليهودية بمصر ، كما كان بعضهم من يهود المغرب.

(Goitien, A Mediterranean Society, P. 133).

(٣٨٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٦٦ - الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٢٣.

(٣٨٦) كان الحجاج القاصدين بيت الله الحرام يعانون من هؤلاء الملاحين أصحاب الجلاب، إذ كانوا يشحنون على مراكبهم كما تشحن الدجاج فى الأقفاص دون مبالاة بما يمكن أن يصيب المركب إذا زادت شحنتها من الركاب، وفى ذلك يقول ابن جبير: " ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة،

يحمل أهلها (يقصد أهل عيذاب) على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة، ولا يبالى بما يصنع البحر بها بعد ذلك، ويقولون: علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح هذا مثل متعارف بينهم " (ابن جبير ، الرحلة ، ص ٧١). وقد تحامل ابن جبير على هؤلاء الملاحين فلعنهم وهجاهم ، وتمنى لو يعود الحجاج إلى سلوك الطريق البرية. يقول ابن جبير: " على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الأنس، وللركوب من جدة إليها (أى إلى عيذاب بعد أداء فريضة الحج) آفة للحجاج عظيمة، الأقل منهم ممن يسلمه الله وعز وجل، وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر فى مراسى بصحارى تبعد منها مما يلى الجنوب، فينزل إليهم البجاة، وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال، فيكرون منهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء، فربما ذهب أكثرهم عطشاً، وحصلوا على مايتخلفه منم نفقة أو سواها، وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشاً، والذى يسلم منهم يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن " . (رحلة ابن جبير، ص ٧٠) وفى موضع آخر يتمنى لو أنه سلك طريقاً غير هذه الطريق، فيقول : " فأحق بلاد الله بحسبه يكون السيف درتها هذه البلدة

(يقصد عيذاب)، والأولى بمن يمكنه ذلك أولاً فيمكنه ذلك أن لا يراها، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ويصل مع أمير الحاج البغدادى، وان لم يمكّنه ذلك أولاً فيمكنه آخرا عند انفضاض الحجاج يتوجه مع أمير الحاج المذكور إلى بغداد، ومنها الى عكة... "(ابن جبير، ص ٧١) ويتحدث عن الأهالى البجاة فيقول : " وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولا ، ولا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها إظهاراً للإسلام ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة، وسيرهم، مالايرضى ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقاً يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يستترون، وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم " (نفس المصدر، ص ٧٢). ويعود مرة أخرى إلى توجيه السباب إلى عيذاب بقوله: " فالحلول بها من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى البيت العتيق زاده الله تشريفاً وتكريماً، وأعظم أجور الحجاج على مايكابدونــــه ولا سيما فـــى تلك البلدة الملعونة". (نفس المصدر، ص ٧٢). وبينما يذكر ابن جبير أنهم كانوا شبه عراة، يصفهم ابن بطوطة بأنهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفراء، ويشدون على رؤسهم عصائب عرض العصابة منها إصبعاً (ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣).

(٣٨٧) ناصرى خسرو، سفرنامة، ص ٧٢، ٧٣.

(٣٨٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣٨٩) ناصرى خسرو، المصدر السابق، ص ٧٣.

(٣٩٠) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣٩١) ناصرى خسرو، سفرنامة، ص ٧٢، ٧٣.

(٣٩٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٣.

(٣٩٣) شاهد ابن جبير فى رحلته من قوص عبر صحراء عيذاب القوافل العيذابية التى تنقل أحمال التوابل الهندية الواردة من اليمن، وأكثر ماشاهده من ذلك أحمال الفلفل والقرفة ملقاه بقارعة الطريق، وسائرها مطروحة لا حارس لها حتى لقد خيل إليه أنها لكثرتها توازى التراب قيمة (ابن جبير، ص ٦٧).

(٣٩٤) من ذلك جلبة بعيذاب كانت لأحد الأستاذين بالقصر الفاطمى زمن الآمر بأحكام الله يقال له لامع ولذلك سميت باللامعية، كان يخصصها لحمل الحجاج (المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٢٦).

(٣٩٥) سفرنامة، ص ٧٣. وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يبعث إلى مراحات الأغنام مابين عيذاب وقوص ليؤخذ ما بها من الأغنام

المختارة التي تجلب من بلاد النوبة واليمن، ويبعث لذلك الأمير أقبغا عبدالواحد فى عدة من المماليك السلطانية ليأخذ من المراحات ما يتخير من الأغنام كما كان يجرد إلى عيذاب وبلاد النوبة لجلب الأغنام إلى قلعة الجبل" (المقريزى، السلوك، ج٢، ص ٥٣١).

(٣٩٦) Goitein, a Mediterranean Society, P.136.

(٣٩٧) الحميرى، الروض المعطار ، ص ٤٦٧. أنور عبدالعليم، المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية فى الفترة مابين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى، بحث بكتاب تاريخ البحرية المصرية، ص ١٧٢.

(٣٩٨) سلسلة التواريخ، باريس، ١٨١١، ص ١٣٧.

(٣٩٩) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٦٧.

(٤٠٠) كان النواخذة العمانيون يقصدون الجزائر الهندية، فيقطعون أشجار النارجيل، ويحففون خشبها ثم يقطعونه ألواحاً، ويفتلون من ليف النارجيل مايخرزون به ذلك الخشب، وينحتون منه أدقالا، ويتخذون من خوصه شراعا، ويحملون ذلك إلى عمان حيث يباع (سلسلة التواريخ، ص ١٣١). وذكر ابن جبير أن الجلاب التى يصرفونها فى هذا البحر الفرعونى ملفقة الإنشاء لا يستعمل فيها مسمار البتة،

إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط، وينقلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب، ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها... ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى، وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن، وكذلك القنبار المذكور. ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل " (ابن جبير، المصدر السابق، ص ٧٠، ٧١ - الخطط للمقريزى، ج١ ص ٣٥٧). ويذكر الحميرى أن السفن المسافرة فى هذا البحر تعمل بحبال الليف والدسر وتجلفط بالشحم المتخذ من دواب البحر ودقاق اللبان (الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٦٧). ويعلل المسعودى عدم استخدام المراكب المسمارية فى هذا البحر الأحمر بأن ماء البحر الحبشى (يقصد البحر الأحمر) لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير فى البحر وتضعف، فاتخذت السفن من ألواح الساج المثقبة والمخيطة بليف النارجيل بدلا من المسمارية، ثم طليت بالشحوم والنورة (المسعودى،

مروج الذهب، ج١ ص ١٥٣). والحقيقة أن السبب فى اتخاذ الجلبات فى البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية والصخور فيه، ولا يخفى أن المادة التى صنع منها الجلاب وطريقة صناعتها تجعلها شديدة المرونة تقوى أمام مصادمات الشعاب المرجانية.

(٤٠١) المسعودى، مروج الذهب، ج١ ص ١٥٢.

(٤٠٢) الإدفوى، الطالع السعيد، ص ١٦١.

(٤٠٣) المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣ ، ص ٢٤٥.

(٤٠٤) الإدفوى، المصدر السابق، ص ٤٠٨.

(٤٠٥) عمارة بن على الحكمى، النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية، تحقيق هارتفيلج درنبورج، باريس، ١٨٩٧، ص ١٢٤.

(٤٠٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق دكتور احسان عباس، ج٥، بيروت، ص ٣٨٥-٣٨٨.

(٤٠٧) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣.

(٤٠٨) ياقوت، معجم البلدان، مادة دهلك.

(٤٠٩) يشير ابراهيم بشير، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٤١٠) المقريزى، السلوك ، ج١ ص ٢١٩.

(٤١١) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٢٨١.

(٤١٢) نفس المصدر ، ج١ ص ٧٠٤ - ابن الفرات، ج٧ ص ٢٣٤.

(٤١٣) المقريزى، نفس المصدر، ج٢ - ص ١٤٥.

(٤١٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ٦٥٤.

(٤١٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص ١١٩.

(٤١٦) المقريزى، السلوك، ج١ ص ٨٧ ومايليها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المطبوعة:

- ابن أبى الفضائل " مفضل" (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣م) :

كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، جزءان، تحقيق بلوشيه" E. Bolochet، باريس ١٩١١.

- ابن الأثير " عز الدين أبو الحسن على ابن أبى الكرم" (٦٣٠ هـ/ ١٢١٣م) :

الكامل فى التاريخ، ٦م، ١٢ج، دار صادر، بيروت ٦٥-١٩٦٦م.

- ابن اياس " محمد ابن أحمد بن اياس الحنفى" (٩٣٠هـ/١٥٢٤م):

بدائع ألزهور فى وقائع الدهور: الأجزاء من ٣ - ٥، نشر الأساتذة بول كاله - محمد مصطفى - سوبر نهايم، استطنبول ٦٠ - ١٩٦٣م.

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور: ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة. ١٩٨٢.

- ابن أيبك الدوادارى " أبو بكر بن عبدالله " (ت بعد ٧٣٦ هـ/ بعد ١٣٣٥م) :

- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس بعنوان " الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية "، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١، الجزء السابع: تحت عنوان: " الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.

- ابن البطريق " سعيد المعروف بأوتيخا".

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩م.

- ابن بطوطة " أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى" (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م):

رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

- ابن بعرة " منصور بن بعرة الذهبى الكاملى":

كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق الدكتور عبدالرحمن فهمى، القاهرة ١٩٦٦م.

- ابن تغرى بردى " جمال الدين أبو المحاسن يوسف" (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٩م):

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، مجموعة تراثنا، القاهرة ٣٨ - ١٩٧٢م.

- ابن جبير " أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسى" (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧م):

رحلة ابن جبير، تحقيق، وليم رايت William Wright ،ليدن ١٩٠٧م.

- ابن حجر " شهاب الدين أحمد بن على" (ت ١٤٤٨/٨٥٢م)

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق الاستاذ محمد سيد جاد الحق، ٥ أجزاء، القاهرة

- إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق الدكتور حسن حبشى، ٣ أجزاء، القاهرة ٦٩-١٩٧٣م.

- ابن حوقل " أبو القاسم" (ت ٣٨٠ هـ/١٩٩٠م):

كتاب " صورة الأرض، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن خردذابة: " عبيدالله بن عبدالله (ت حوالى ٣٠٠ هـ/٩١٢ م):

المسالك والممالك، نشر دى غويه، ليدن ١٨٨٩م.

- ابن خلكان: " شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م):

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٧١م.

- ابن دقماق ابراهيم بن أيدمر العلائى" (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):

كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، نشرة مصورة عن مطبعة بولاق، ١٨٩٣، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن رسته "

الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١م.

- ابن سعيد الأندلسى " أبو الحسن على بن موسى بن عبدالملك، (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦م):

المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. زكى محمد حسن، دكتور شوقى ضيف، دكتورة سيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣م.

- ابن شاكر الكتبى " محمد بن شاكر" (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م):

عيون التواريخ، ج٢٠، تحقيق د. فيصل السامر، والأستاذة نبيلة داود، بغداد، ١٩٨٠.

- ابن شاهين الظاهرى " غرس الدين خليل" (ت ٨٧٣ هـ/١٤٦٨م):

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بول رافيس Paul Ravaisse ، باريس ١٨٩٤م.

- ابن ظهيره " ق ٩ هـ/١٥ م".

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق الأستاذين مصطفى السقا و كامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩م.

- ابن عبدالحكم " عبدالرحمن أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله" (ت ٢٥٧ هـ/٨٧٠م):

فتوح مصر والمغرب، تحقيق الأستاذ عبدالمنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.

- ابن عبدالظاهر " القاضى محيى الدين " (ت ٦٩٢ هـ/١٢٩٢م):

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل ومحمد على النجار، القاهرة ١٩٦١م.

- ابن الفرات " ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن على " (ت ٨٠٧ هـ/ ١٠٤٥م):

تاريخ ابن الفرات، الأجزاء من ٧ - ٩ تحقيق د. قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت ٣٩ - ١٩٤٢.

- ابن المجاور " جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م):

صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ويسمى تاريخ المستبصر، نشر أوسكار لا فجرين " O. L,ofgren" ، جزءان، ليدن، ٥١-١٩٥٤م.

- ابن مماتى " الأسعد شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد " (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩م) : قوانين الدواوين، نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م.

- ابن منجب الصيرفى " أبو القاسم على بن منجب" (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م):

الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبدالله مخلص، القاهرة ١٩٢٤.

- ابن واصل " جمال الدين محمد بن سالم" (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨م):

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج١ - ٣، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة ٥٣ - ١٩٥٧م.

- أبو شامة:" شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسى" (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م):

الروضتين فى أخبار الدولتين، جزءان، تحقيق د محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٥٦م.

- أبو الفداء " عماد الدين اسماعيل بن محمد" (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م).

تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.

- أبو مخرمة " أبو محمد عبدالله بن أحمد" (ت ٩٤٧/١٥٤٠م):

تاريخ ثغر عدن، صنعاء ، ١٩٨١م.

- الإدفوى " أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م):

الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق الأستاذ سعد محمد حسن، القاهرة ١٩٦٦م.

- الإدريسى " الشريف أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز " (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٤م):

كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جزءان، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.

- الإربلى " عبدالرحمن سنبط قنيتو"

خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، بغداد، ١٩٦٤.

- الاصطخرى " أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى" (عاش فى ق ٤ هـ /ق ١٠م).

المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحينى، القاهرة ١٩٦١.

- البلاذرى " أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى" (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م):

فتوح البلدان، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد، قسمان، القاهرة، ٥٦-١٩٥٧م.

- الحمادى اليمانى " محمد بن مالك بن أبى الفضائل" (ت أواسط ق ٥ هـ/أواسط ق ١١م):

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة ١٩٨٨م.

- الحميرى "أبو عبدالله محمد بن عبدالله" (ت أواخر ق ٩ هـ/أواخر ق ١٥م):

الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق د. احسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م.

- الزهرى " أبو عبدالله محمد بن أبى بكر" (ت أواسط ق ٦ هـ/أواسط ق ١٢م):

كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨م.

- السجلات المستنصرية:

تقديم ودراسة د. عبدالمنعم ماجد، القاهرة، ١٩٥٤م.

- السيوطى " جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر" (ت ٩١١ هـ/١٥٠٦م):

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، جزءان،

- الطبرى " أبو جعفر محمد بن جرير" (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م):

تاريخ الأمم والملوك، ج١١ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة،

- عمارة اليمنى " أبو محمد نجم الدين بن أبى الحسن على " (ت ٥٦٩ هـ/١١٧٤م):

النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية، تحقيق هارتفيلج درنبورج، باريس ١٨٩٧م.

- العينى " بدر الدين محمود العينى" (ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١م):

عقد الجمان فى تاريخ أعيان الزمان، ج١ - ٣، تحقيق

د. محمد محمد أمين، القاهرة ٨٠ – ١٩٨٨م.

- القلقشندى " أبو العباس أحمد بن على بن أحمد" (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، طبعة تراثنا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، ١٤ جزء، القاهرة، ١٣ – ١٩١٥.

- الكندى " أبو عمر بن يوسف الكندى المصرى" (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١م):

كتاب الولاة وكتاب القضاة، نشر رفن جست، بيروت، ١٩٠٨م.

- ليون الإفريقى " الحسن بن محمد الوزان الزيانى " (ت بعد ٩٥٧ هـ/بعد ١٥٥٠م):

وصف افريقيا، ترجمة من الفرنسية، الدكتور عبدالرحمن حميدة، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٣٩٩هـ.

- المسعودى " أبو الحسن على بن الحسين بن على" (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧م):

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٥٨م.

- المقدسى " شمس الدين أبو عبدالله محمد" (ت قريبا من ٣٨٠/قريبا من ٩٩٠م):

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، طبعة دى غويه، ليدن ١٩٠٦م.

- المقرى " أبو الوليد أحمد بن محمد المقرى التلمسانى الفاسى" (ت ١٠٤١ هـ/١٦٣١م):

نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، نشر الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد القاهرة، ١٩٤٩م.

- المقريزى " تقى الدين أحمد بن على" (ت ٨٤٥/١٤٤١م).

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، ٤ أجزاء، بيروت،

.... السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء فى ١٢ قسم، الجزءان الأول، والثانى، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ٣٩ - ١٩٥٨، والجزءان الثالث والرابع تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.

.... الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥.

.... اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزء الأول، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨.

.... الجزءان الثانى والثالث، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٣.

.... اغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر د. محمد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٠م.

.... البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، الإسكندرية، ١٩٦١، ونسخة أخرى، طبعة الإسكندرية ١٩٨٩م.

- ناصرى خسرو علوى " (ت بعد ٤٤٤ هـ/١٠٥٢م):

سفرنامة، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٤.

- النويرى السكندرى " محمد بن قاسم بن محمد المالكى"

(ت بعد ٧٧٩ هـ / بعد ١٣٧٦م):

كتاب " الإلمام بالإعلام فيماجرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية، ٧ أجزاء، تحقيق د. عزيز سوريال عطية، حيدر أباد، الدكن، ٦٨ - ١٩٧٣.

- الهمذانى " أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق ابراهيم" (من علماء أواخر ق ٣ هـ/ق ٩ م):

مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٨٨٥م.

- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى" (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م):

معجم البلدان، خمس مجلدات، بيروت ١٩٥٥م.

- يحيى بن الحسين " ابن الامام القاسم بن محمد" (ت ١١٠٥هـ/١٦٩٣م):

غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، جزءان، تحقيق د. سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة ١٩٦٨م.

- اليعقوبى " أحمد بن أبى يعقوب بن واضح" (ت فى ق ٣ هـ/ق ٩ م):

- تاريخ اليعقوبى، طبعة دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩٢م.

ثانياً : المراجع العربية والأوربية المعربة:

- ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، مجموعة الألف كتاب، عدد، ٢٧٩، القاهرة ١٩٥٩.

- أحمد السيد دراج : عيذاب، مقال فى مجلة نهضة أفريقيا، العددان التاسع والعاشر، يوليو - أغسطس ١٩٥٨م.

- أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سيناء، القاهرة ١٩٧٧م.
- أحمد عبدالرازق أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، (دراسة عن الرشوة)، القاهرة، ١٩٧٩م.
- أحمد عمر الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ - ٤٨٧ هـ) الرياض ١٩٨١م.
- أحمد فخرى : مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧٨م.
- أحمد محمد العدوى : سواحل مصر بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد الخامس، الجزء الأول.
- أحمد مختار العبادى : البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، بحث فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، الاسكندرية ١٩٧٣م.
- أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة ١٩٦٠م.
- آمال العمرى : بركة الحاج خلال العصرين المملوكى والعثمانى، القاهرة ١٩٨٧م.

- أنور عبدالعليم : المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية فى الفترة مابين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادى، بحث فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٣م.

- برستد " جميس هنرى" : انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخرى، القاهرة ١٩٦٢م.

- بشير ابراهيم بشير : عيذاب، حياتها الدينية والأدبية، مجلة نهضة افريقية.

- جاردنر (سير آلن) : مصر الفراعنة ، ترجمة د. نجيب ميخائيل ابراهيم، القاهرة ١٩٧٣م.

- جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٥٣م.

- جورج فاضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨م.

- جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط (١٢٥٠ . ١٢٥٤) القاهرة ١٩٥٩م.

- جويتاين : دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، ترجمة د. عطية القوصى، القاهرة

- حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ،أهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مقال فى الكتاب الأول من مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢، الرياض ١٩٧٩.

-.................... : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٤.

-.................... : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى، من أبحاث الأسبوع العلمى الثالث ١٠ – ١٥ مارس ١٩٧٩ عن البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، القاهرة ١٩٨٠م.

- رانسيمان (ستيفان) : تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء ، ترجمة د. السيد الباز العرينى، بيروت ١٩٦٨م.

- زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، القاهرة، ١٩٣٧م.
- سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٦م.
- سعد زغلول عبدالحميد : فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٥م.
- سعيد عبدالفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشـــــام، القاهرة، ١٩٦٥م.
العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م.
- .... : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة، ١٩٥٩م.
- السيد عبدالعزيز سالم : التجارة البحرية فى الخليج العربى فى صدر الإسلام، مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية،ج١، الدوحة ١٩٧٦.
- .... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الاسكندرية ١٩٨٢.

- السيد عبد العزيز سالم : العصر العباسى الأول، الإسكندرية ١٣٩٨هـ.

-........................ : تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط، ج١، بعنوان البحرية الإسلامية فى مصر والشام بالاشتراك مع د. أحمد مختار العبادى، الإسكندرية ١٩٧١م.

-.......................... : تاريخ العرب فى العصر الجاهلى، الاسكندرية ١٩٨٢.

- سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى عصر الإخشيديين، القاهرة ١٩٥٠م.

- الشاطر البصيلى : الكارمية، بحث في المجلة المصرية للدراسات التاريخية، عدد ١٣، القاهرة ١٩٦٧م.

- صبحى ينى لبيب : التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مايو ١٩٥٢.

- عارف تامر : القرامطة، بيروت ١٩٧٩م.
- عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية، المجلد ٢١، القاهرة ١٩٤٦م.
- عبدالمنعم عبدالحليم سيد : حضارة مصر الفرعونية، ج١، الإسكندرية ١٩٧٨م.
- عبدالمنعم ماجد : الإمام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة ١٩٦١م.
- عطية القوصى : أضواء جديدة على تجارة الكارم، المجلة التاريخية المصرية، مجلد، ٢٢، ١٩٧٥.
- .... : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦.
- .... : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٧٦م.
- عصام الدين عبدالرءوف الفقى : اليمن فى ظل الإسلام، القاهرة

١٩٨٢م.

- علي باشا مبارك : الخطط التوفيقية، ج١٤، القاهرة، ١٣١١هـ.

- فاروق عمر : الخليج العربي في العصور الإسلامية، دبي ١٩٨٣م.

- فردوس منصور عبيد : العلاقات اليمنية المصرية في فترة حكم الصليحيين، بحث في ندوة العلاقات اليمنية - المصرية، عدد ١٦ - ١٨ يناير، عدن ١٩٨٩.

- فيصل السامر : ثورة الزنج، بغداد، ١٩٧١م.

- كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب في عصر الفاطميين والأيوبيين، من أبحاث ندوة القاهرة الدولية، ج٢ ١٩٧٠م.

- لطفي عبدالوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة، بيروت ١٩٧٨م.

- محمد عبدالعال أحمد : أضواء جديدة على ملاح فاسكو دي جاما، مجلة الدراسات الإفريقية، القاهرة ١٩٧٦.

-...................... : بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن

الخارجية فى عهدهما، الإسكندرية ١٩٨٠.
- محمد عبد العال أحمد : الأيوبيون فى اليمن، الإسكندرية ١٩٨٠.
-........................ : موقف مصر من النوبة فى العصر المملوكى الأول،
نشرة معهد البحوث والدراسات الأفريقية،
القاهرة، ١٩٨٧م.
-........................ : البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، الإسكندرية ١٩٨٠.
- محمد أحمد سطيحه : المراكز العمرانية على ساحل البحر الأحمر فى اقليم مصر والعوامل الجغرافية التى أثرت فيها - رسالة ماجستير قدمت إلى جامعة الاسكندرية ١٩٦١.
- محمد رمزى بك : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى، الجزء الرابع، القاهرة ١٩٦٣م.
- محمد فاتح عقيل : أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية بحث فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية ١٩٧٣م.

- محمد كريم ابراهيم : الفعاليات الاقتصادية لميناء عدن خلال القرنين الخامس والسادس الهجرى، دراسة تاريخية، مجلة المؤرخ العربى، العدد ٣٥، لسنة ١٤، بغداد ١٩٨٨م.
- محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام، القاهرة ١٩٧٣م.
- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠م.
- نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة ١٩٧٣.
- الواسعى : تاريخ اليمن، القاهرة ١٣٤٦ هـ.
- يوسف درويش غوانمه : رؤية فى مفهوم الأمن القومى فى عهد صلاح الدين، مجلة المؤرخ العربى، العدد ٤٣، بغداد ١٩٩٠م.
- .... : إمارة الكرك الأيوبية، عمان ١٩٨٢م.

ثالثاً : المراجع الأوربية:

- Abdel-Monem A. H. Sayed;
Preliminary Report on Quseir Qadim, review by Abdel Monem A. H., in chronique d'Egypt.

- Al-Sayed Abd Al-Aziz Salem;
Des Grecs aux otoomans grandeur et misére d'un mythe, dans le Miroir Egyptien, Marseill, 1984.

- Bent (J. T.);
A visit to Northern sudan, the geographical Journal, VII, January-June, 1896.

- Cauyat (J.);
Les routes d'Aidhab, dans Bulletin de L'institut Français d'Archéologie orientale (BIFao) Vol. VIII, Le Caire, 1911

- Clerget (M.);

Le caire, ét ude de Géographie urbaine et d'Historie économique, t. II, Le caire, 1934.

- Donald (S. Whitcombe), Janet H. Johnson; Quseir al-Qadim, 1978.

Preliminary Report, Caire American Research center in Egypte, Prineston, 1979.

..............................;

The port of Quseir al-Qadim, 1980, in Field Museum of natural history Bulletin, June, 1980. Report of the Archaeological investigations at Quseir al-Qadium, 1978.

..............................; Quseir al-Qadim : Preliminary Report abbout Quseir al-Qudim Ann Roth, glass, 1978.

Dozy (R.);

Syupplément aux dictionnaires arabes, Beyrout, t. 2, 1968.

Garcin (J. C.);

Un center Musulman de la haut Egypte Médiévale: Qus Pub. Institut. Français d'Archéologie orientale, du caire, t. VI, 1976.

..............................;

La Méditerranéation de L'empire Mamelouk sous les sultans bahirdes, Revista Degli studi orientali, Vol. XLVIII, Roma, 1974.

Goitein (S. D.);

Letters and documents on the India Trade in Medieval Times, Pub. in A Journal of Medieval studies No. 27, 1963.

.............................;

Studiesin in Islamic history and Institutions, Leiden, 1966.

.............................;

Amediterranean society, Berkeley, 1967.

Heyd (H.);

Histoire du comerce du levant au Moyen-âge, ed. Par Furay Raynaud, Amesterdam, 1967.

- Kammerer (A.);

La Mer Rouge â travers les âges, t. III, La caire, 1929.

- Maspero (J.). & Wiet (G.);

Matériaux Pour servir de la géographie de L'Egypte, dans Mémoires d L'Institut d'Archéologie orientale du caïre, t. XXXVI, 1919.

Mémoires d L'Institut d'Archéologie orientale du caire, t. XXXVI, 1919.

- Murrary (G. W.);

Aidhab, The géographical Journal, Vol. 88, 1926.

- Rabie (H.);

The Financial System of Egypt, (A. H. 564-741/1169-1341 A. D), London, 1972.

Schoff (A.M.);

The periplus of the Erythraean Sea, London, 1912.

Wiet (G.) ;

L'Egypte arabe, dans" Histoire dela nation égyptianne", dirigée Par Gabriel Hanotaux, t, IV, Paris, 1937.

....;

Les Marchands d'épices sous les sultans Mamlouks, cahiers d'Histoire égyptienne, La caire, 1955.

Wiet &Hautecoeur ;

Lés mosquées du Caire, Paris, 1932.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس موضوعات الكتاب

الصفحـــة

الصفحـــة

الصفحة

الترقيم الدولى ٤– ٠٠٥– ٢١٢– ٩٧٧

رقم الايداع ١٥٠٧ /١٩٩٢

فى ٢١/١٢/ ١٩٩١

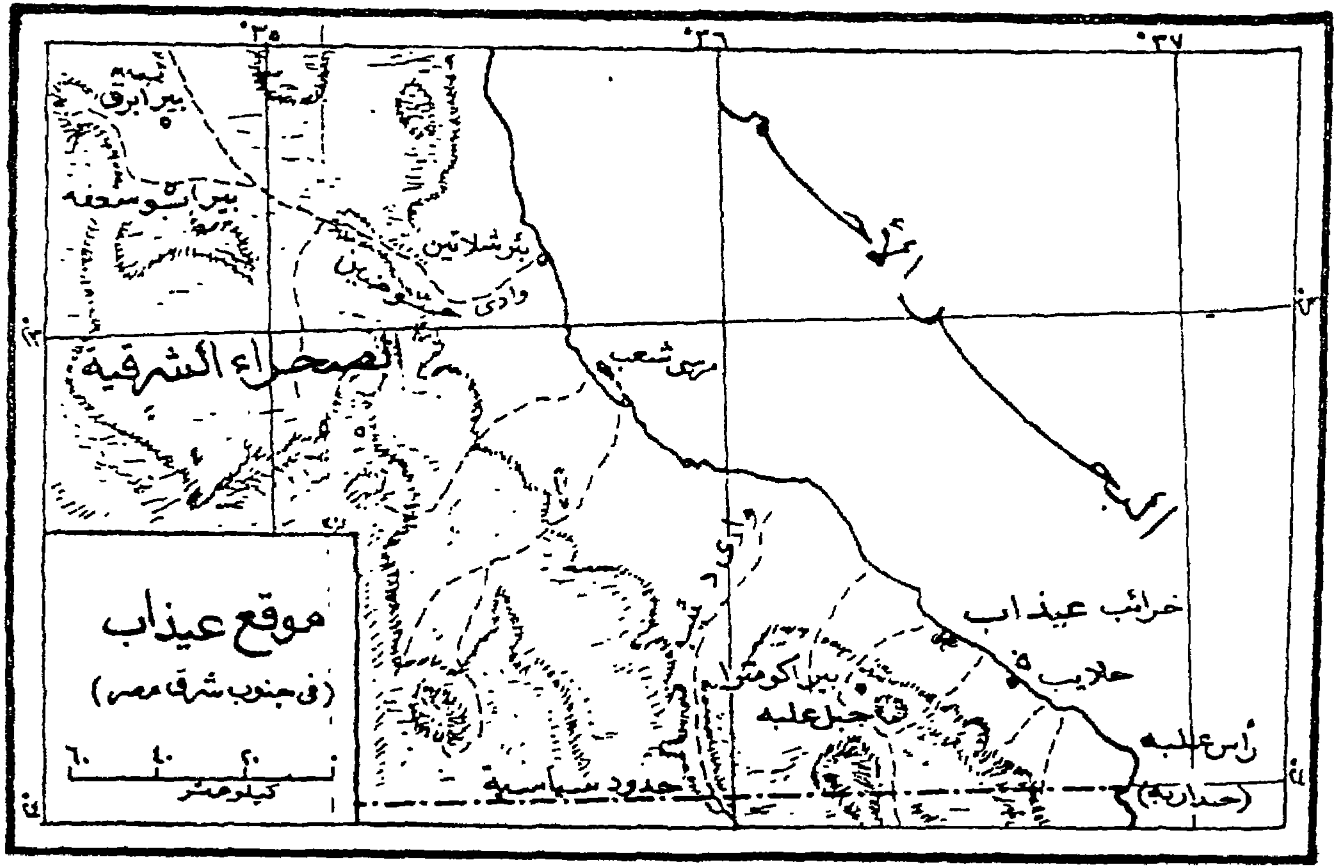
مطبعة الانتصار

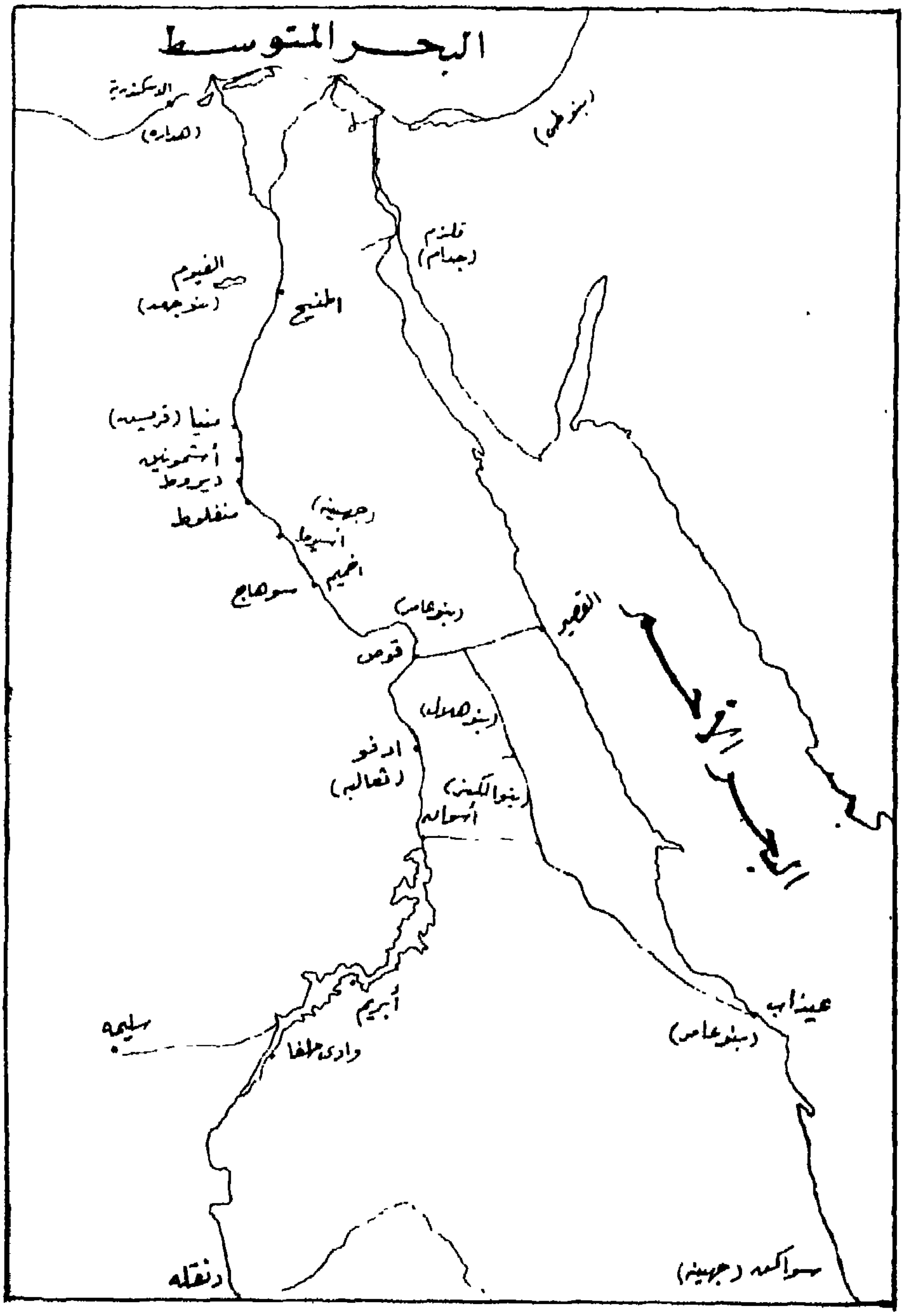
لطباعة الاوفست

كوم الدكة خلف شركة مياه الاسكندرية

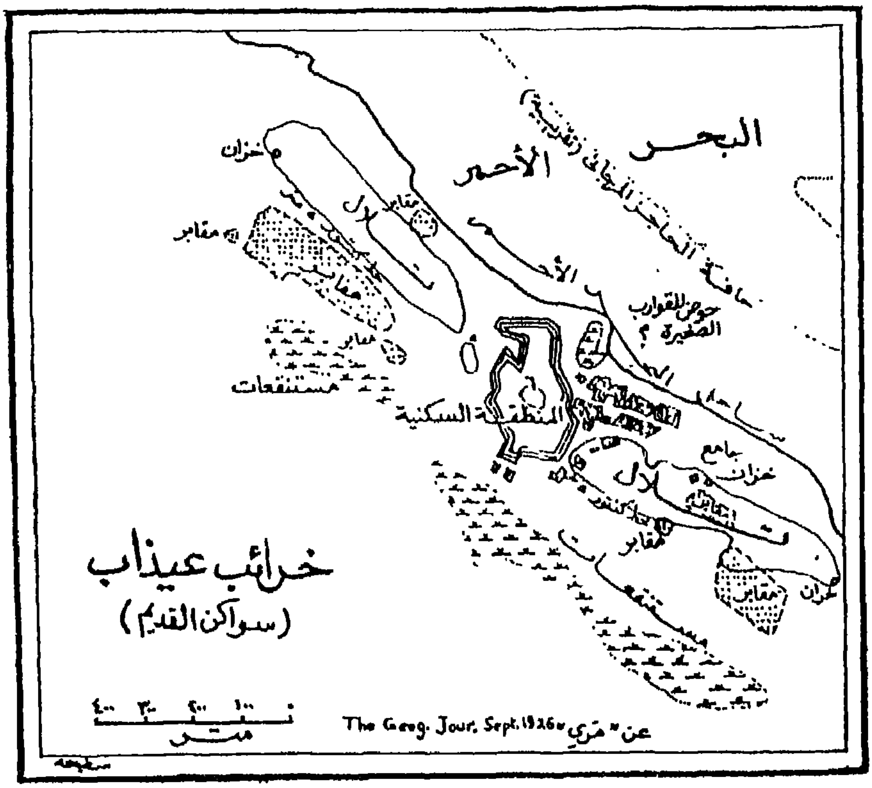
ت: ٤٩١٦٥٩٧

محمد صبرى

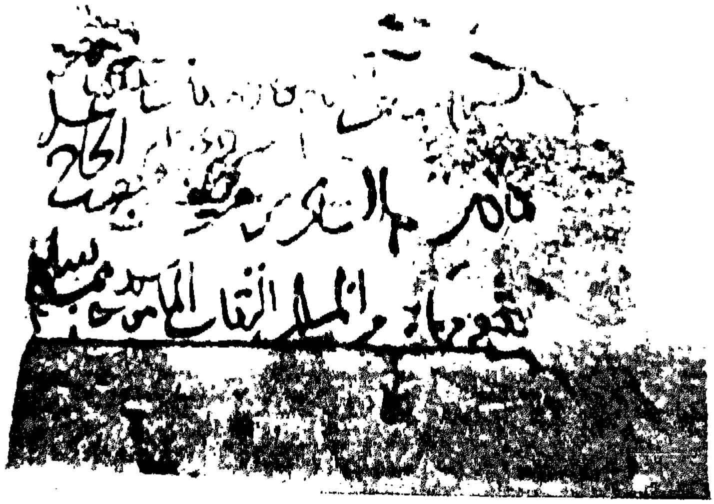

موقع عيذاب
(في جنوب شرق مصر)
كيلومتر
٦٠ ٤٠ ٢٠ ٠
الصحراء الشرقية
بير ابرق
بير أبو سعفه
بئر شلاتين
وادي حوضين
مرسى شعب
خرائب عيذاب
حلايب
بير اكوشتام
جبل علبه
رأس علبه
جدود سياسية
(حدارية)
البحر الأحمر
٣٥°
٣٦°
٣٧°

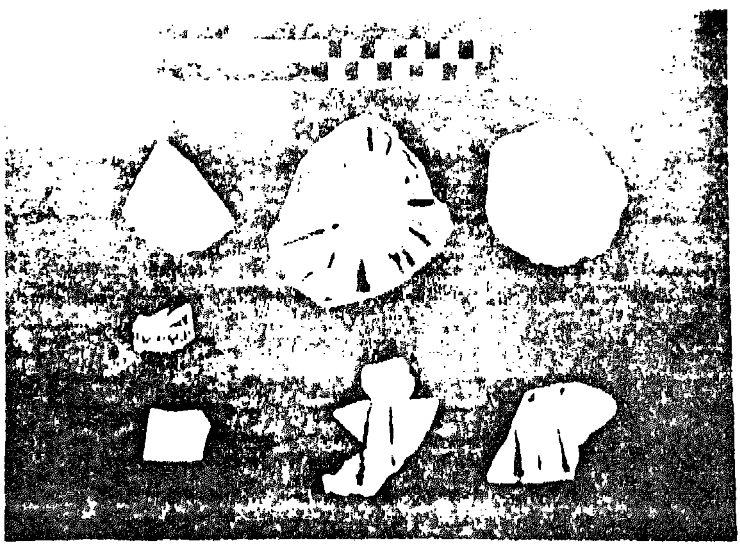


العناصر السكانية في وادي النيل في بداية عصر دولة المماليك



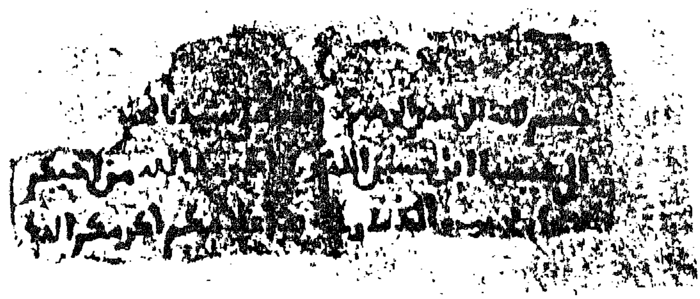
Marray. G.W.(1926): "Aidhab", The geog. Jour. VoL. LXVIII(1)
N°. 3. pp. 237 - 239

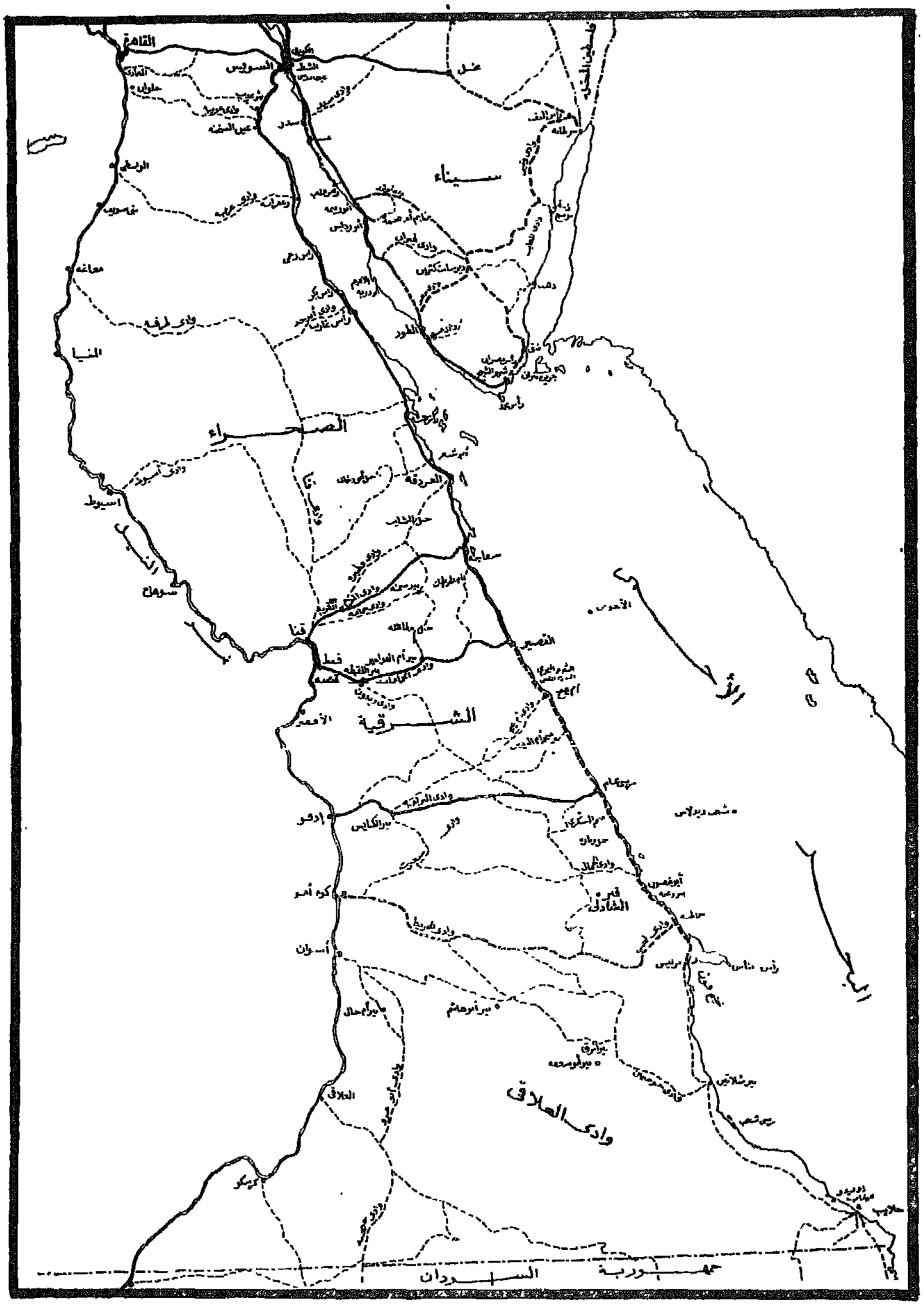












القاهرة
السويس
سيناء
الصحراء
المنيا
اسيوط
سوهاج
قنا
القصير
الغردقة
الشرقية
إدفو
أسوان
وادى العلاقى
جمهورية السودان

غلاف مطبعة الانتصار
ELENTSAR PRESS
١ شارع الوردي كوم الدكة ت ٤٩١١٦٥٩٧ اسكندرية